كتاب
لونس

مساعدة الأحذية الصغير في سانيغورا

library4arab.com
www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

مساح للأحذية الصغير في سايغون

www.alkottob.com

التصميم والغلاف والخطوط : عماد حليم

كتاب لوتس

سلسلة كتب تصدرها "لوتس"
مجلة إتحاد كتاب آسيا وأفريقيا

الطبعة الأولى 1987

المراسلات

لوتس : منار 5 ـ شارع 1002 ـ فيلا 21
هاتف : 235.839 ـ ص.ب : 488 ـ 1049 تونس ـ حشاد
الجمهورية التونسية

www.alkottob.com

library4arab.com

كتاب لونس

عسّاح للأحذية الصغيرة في سانغو

www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

مقدمة المترجم

لقد انتهت ملاحم الأبطال الأفراد وبدأت في مطلع القرن العشرين ملاحم الشعوب . وربما كانت فى طليعة هذه الملاحم ملحمة فيتنام ، التي أتمت شطرها القتالي عام ١٩٧٥ عندما حققت وحدتها وحريتها وبدأت منذ ذلك العام تحقيق شطرها الثاني في بناء وطنها وتحقيق اشتراكيتها .

لقد كان لي شرف تعريف أمتي العربية بأدب فيتنام عندما ترجمت وأصدرت (تاريخ الأدب الفيتنامي ــ شعراً و نثراً ــ من أول عصوره حتى اليوم) في أربعة مجلدات صدر المجلد الأول عام ١٩٨٠ عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق ثم تلته سائر المجلدات .

كما كان لي مثل هذا الشرف حين أصدرت مجموعة من القصص الفيتنامي عام ١٩٨٢ في مطبوعات دار النشر (منارات) في عمان .

وتابعت ترجمة هذا الأدب الرفيع ، وكل ما أرجوه أن تتاح لي فرصة نشر كل ما ترجمت .

كانت غايتي الأولى من ترجمة هذا الأدب أن أضع أمام الشعوب العربية مثالاً حياً لأدب النضال ، ، ونموذجاً لسلوك ثوري إذا اتبعته شعوب العالم

www.alkottob.com

كان طريقاً لخلاصها وتحررها .

وإني لأعتز اعتزازا غير قليل بالرسالة التي أرسلها إليّ اتحاد الكتاب في فيتنام يشكرني فيها على ترجمة أدب فيتنام ، وإن كنت أعتقد أني بهذه الترجمة لم أخدم فيتنام وحدها ، بل خدمت بالدرجة الأولى شعبي العربي على العموم ، وشعب فلسطين على الخصوص في نضالهما للخلاص من الاستعمار والصهيونية .

أما رأيي في هذا الأدب ، فقد ذكرته في محاضرتي عن الكاتب والشاعر السياسي « نغوين تري » حين قلت :

« وكما تنتصب الجبال شامخة ، وتجري الأنهار دافقة ، وتنبت الأشجار سامقة وتتفتح الأزهار يانعة في بقاع أرضنا الطيبة ، كذلك ينتصب الأبطال وينبت الفلاسفة والكتاب والشعراء في شعوب هذه الأرض » .

« كل شعب له أبطاله وفلاسفته وشعراؤه ، يتساوى في ذلك الشعب الكبير والشعب الصغير . والأدب الذي تبدعه هذه الشعوب لايتعلق مافيه من إبداع وجمال بوفرة عددها وسعة أراضيها ، فكم رأينا من شعب كثير العدد أنتج أدبا متواضعاً وكم رأينا من شعب قليل العدد أنتج أدباً راقياً .

« من هذه الشعوب الصغيرة التي أنتجت الأدب الراقي شعب فيتنام » .

« في تاريخ الأدب الفيتنامي تطالعنا صورة واضحة لشعب مناضل تكوّن وكبر خلال العصور وأثبت أصالته وعمقه وقوته ووجدانه الوطني في الدفاع عن أرضه خلال ألوف السنين » .

« إنه أدب غني مبدع راسخ مستمر ، نرى من خلاله بنيان ثقافة قومية ثابتة الجذور ، ولعل أبرز سماته ، العناصر الآتية :

١ – إنه أدب يتصل بكفاح شعبه من أجل حقه في خيرات وطنه والخلاص من مغتصبي لقمته .

٢ – إنه أدب يتصل بكفاح الشعب من أجل تحرره والدفاع عن وطنه .

٣ – إنه أدب يبين لنا أن الدفاع عن الوطن لايقتصر على القادة ، وإنما

www.alkottob.com

ينبغي إن يشمل الشعب كله ، فالحرب الشعبية كانت خلال العصور القديمة والعصور الحديثة الصفة الغالبة لكل حركة وطنية يقوم بها شعب فيتنام دفاعاً عن كرامته الوطنية .

٤ – إنه أدب يظهر اشتراك المرأة إلى جانب الرجل في الدفاع عن الوطن وطرد الغزاة وتحرير البلاد ، فالأختان (ترونغ) هما اللتان تولتا في تاريخ فيتنام انقاذ الوطن من أنياب المستعمرين والمستعبدين منذ أمد بعيد .

٥ – إنه أدب يتميز عن سائر آداب العالم بدعوة المثقفين وأصحاب المواهب إلى الاشتراك في حكم البلاد ، فليس القائد – مهما كان حكيماً – بقادر على إسعاد شعبه إذا لم يشاركه المثقفون والموهوبون في تسيير مصالح هذا الشعب .

تلك هى الصفات البارزة في أدب فيتنام ، تعززت وتأكدت خلال العقود الأخيرة في ذلك الكفاح البطولى الخارق للاستعمار الفرنسي والياباني ثم الفرنسي والأميركي . هذا الكفاح الذى كان ملحمة من الملاحم الخالدة في تاريخ الشعوب ، والذي كان مفاجأة وقدوة للإنسانية جمعاء » .

وأضيف إلى رأيي في أدب فيتنام رأي كاتب وشاعر بلغاري مسئول هو (جيورجي جاغاروف) في قوله :

« إذا كان الشعراء الصغار يصبحون كباراً لأن بلادهم كبيرة ، فلماذا لاتصبح البلاد الصغيرة كبيرة إذا كان لها شعراء كبار ؟ »[1] .

تضم هذه المجموعة القصصية الثانية التي يتكرم (كتاب لوتس) بنشرها ثلاث قصص كتبت قبل التحرير عام ١٩٧٥ وهي :

١ – في غياب ماما .
٢ – محارب (شو ــ بونغ) الباسل .
٣ – مساح الأحذية الصغير في سايجون .

ولست في صدد تلخيص هذه القصص الثائرة وتحليلها ، لكيلا يفقد

---

(١) مجلة (اوبذور) البلغارية ، العدد ٧٣ ، سنة ١٩٨٥ ، ص ٤٤ – ٤٧ .

www.alkottob.com

قارئها نشوته عند قراءتها ، ولكني الاحظ عليها ملاحظة هامة :

إن الشعب الفيتنامي الذي حقق النصر في معركة التحرير والتوحيد في بسالة وتجرد واندفاع مايزال يتابع سيره للنصر في معركة البناء والاشتراكية . والمبادىء التي تمتع بها المقاتل الفيتنامي في الحرب ماتزال هي التي تحكمه ويسير على هديها في السلام . وذلك يعني أن نصره في الحرب سيتبعه دون شك نصره في السلم ، وهو نصر لايقل عن النصر الأول قيمة ومسئولية .

أعود فأشكر ناشر هذه المجموعة القصصية الثانية وأرجو أن يتم نشر كل ماترجمت ، ومما ترجم الأدباء من هذا الأدب الرفيع .

دمشـــق : ١٤ آيار / مايو / ١٩٨٦

عبد المعين الملوحي

www.alkottob.com

في غياب ماما

نعومي زيدي

www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

أوشك أن ينتصف النهار . الريح تهب عاصفة من جانب النهر الخلفي . في الأيام الماضية هطل المطر ، كل صباح ، وأصبح الهواء رطباً ، ومع ذلك ظلت الشمس تطرد الغيوم فتتجلى السماء صافية منيرة . طبقة الرمل التي كانت تغطي ثمار البطاطا التي بعثرتها نفثات القنابل على الكثبان جفت فتلألأت حبات الرمل تحت أشعة الشمس . بعد هزّات الانفجارات ، بدت قطرات المطر الأخيرة ، تتشبث يائسة ، بأكواخ القش ، كأنها اللآلىء .

تسلقت (بي) شجرة جوزهند وانتصبت فوق حافة سعفة . من هنالك تستطيع أن تستشرف الأفق . كانت عيناها مبتلتين قليلاً وقد أغمضتهما الريح العاصفة ، والشمس الساطعة . أصغت (بي) إلى الأصداء التي تبلغها دوي القنابل ، زئير الطائرات المنقضّة ، أزيز الطوافات التي تنقل المسافرين عبر النهر ، قصف الرعد المتواصل .. كل هذه الأنواع من الجلبة كانت تعلو ولاتلبث أن تختفي في الفضاء الواسع . ولكن البنت سمعت ضجة أكثر دلالة : طقطقة البنادق التي تدل عادة على بدء معركة . إنها صوت ثابت ، يشبه صوت مدقٍ يضرب الأرض ، ألفته جداً ، كما ألفه إخوانها وأخواتها . ولكنها هيئاً ترهف أذنيها فلاتسمع غير ما سمعت .

ذات ليلة عادت أمها . كنت إذا رأيت قطرات المطر تلمع على ذقنها

www.alkottob.com

تصورتَ أنها كانت تعمل في حقول البطاطا ، وأن العرق هو الذي يبلل وجهها . ولما مالت الأم لتقبل أصغر أولادها ، أحست (بي) وهي البكر برطوبة شالها الرقيقة . وعندما نام الصغير أسرعت الأم إلى فتح المخبأ وأخرجت رصاصات ملأت بها حزامها وجعبتها ثم غادرت البيت ورحلت ، وقبل أن تخرج داعبت شعر (بي) وأوصتها :

– إذا طبخت الأرز فلا تصبي الماء المغلي من الطنجرة وإلا تعرضت للحريق . سأعود غداً .

سمعت البنت أمها تقفز الساقية المحفورة أمام البيت ، ثم اختفي وقع خطواتها في صوت المطر وقصف المدافع . وفكرت البنت أن أمها فضلت إجتياز الساقية بقفزة واحدة ، بعد أن أصبح المعبر مزلقاً .

أوقفت الأم هذا الصباح زورقها قرب البيت . كان معها بعض الفتيات النصيرات ، وكان أولادها مشغولين بالتهام البطاطا المشوية تحت الجمر ، فهرعوا إليها عندما سمعوا نداءها ، وجعلت الأم الزورق ينزلق حتى المعبر ، وكانت قد علقت هناك شطائر من الأرز اللزج . داعبت بالمجداف بطن (هيان) الصغير العريان كأنه دودة ، ثم انطلقت ، ولم يلبث الزورق أن ابتعد تحثه ضربات المجداف المتوالية . كانت الفتيات النصيرات جالسات في الزورق وبنادقهن على أكتافهن ، وثيابهن ملطخة بالطين يصفقن للأطفال ، فتجيبهن (بي) وإخوانها وأخواتها بالتصفيق . وسرعان ماتوارى الزورق الذي تستره طبقة كثيفة من الأغصان والأوراق بين الشجيرات التي مزقتها القنابل والمتفجرات .

سمعت (بي) صدى طلقات البنادق وكانت قد تسلقت الشجرة مرات كثيرة ، وكان إخوانها وأخواتها ينتظرون عند جذع شجرة الجوز ، والصغير (هيان) ، وهو عريان – كما كان دائماً – يبحث بعينيه عن أخته في ذروة الشجرة . كانت قدماه منفرجتين ورأسه منحنياً إلى الوراء . وقلدت (آنه) أختها (بي) فتسلقت شجرة أخرى على ضفة النهر وأتلعت عنقها الأسمر ، من أشعة الشمس ، وذقنها الحادة ، لكي تستطيع الرؤية جيداً . أما (تانه) وكانت أطول من (آنه) بمقدار رأس ، وكان شعرها مضموما إلى قذالها ، فكانت

www.alkottob.com

تحاول جاهدة أن تحمل الطفل لتريه بإصبعها خيال أختهما القابعة على قمة شجرة الجوز الهندي .

ثبتت (بي) نظرتها على المكان الذي كانت تعرف فيه بقع الحقول الصفراء ، حقول البطاطا ، وبقع دوالي العنب الخضراء ، التي تخالطها أشجار الليمون الهندي ، ذات الأزهار البيضاء ، وحزم قصب السكر ، التي تساقطت أوراقها ، وصفوف أشجار الجوز « السيامي » ، بما فيها من جوز في متناول اليد ، وأشجار التفاح ، المثقلة بالثمار .

لقد اختفى هذا كلّه تحت قنابل المعتدين ، ولم يبق مكانه الآن غير مكان أجرد مقفر ، يلمع فيه جرس كنيسة (بامي) تحت أشعة الشمس ، إلى جانب مرقب الحرس المدني المدهون بالأسود ، ومن بعيد يبدو النهر وكأنه خط تتشبث به غيوم ضخمة تظن أنها صخور .

الآن – كما تعرف (بي) – سوف تئز الطلقات النارية في هذا الاتجاه ، وستخوضُ المعركة أمها والفتيات النصيرات ، اللواتي رأتهن في الزورق . لقد ذهبت (بي) عدة مرات إلى هذا المكان ، بعد أن كلفها معتمد الإتصال في المقاطعة حملَ الرسائل المستعجلة إلى أمها . كانت عادتها ، عندما تذهب ، أن تتزود بسلّة لالتقاط حبات البطاطا ، التي نسيت هنا وهناك في الحقول ، أو حزم الأرز غير المقشور ، الذى ألقته القاشرات . إن دخان هذه الحزم إذا أحرقت يطرد الذباب من البيت . ولكن أهم ما كان يشغلها في مثل هذه الرحلة أن تستطيع التوقف عند المدرسة . كانت عيناها الكبيرتان تتفتحان وهي ترى فم المعلمة المدور وهي تلقي درساً في الغناء ، وكانت المعلمة ترسم من حين إلى آخر على اللوح الأسود علامات مستديرة مثل قبضتيها .

لم تكن البنت تعرف القراءة ، ولم تكن تستطيع الذهاب إلى المدرسة ، وهي مشغولة بالإشراف على إخوانها وأخواتها . كانت ترى المدرسة وكأنها نوع من اللعب ، تقوم فيه المعلمة بدور المعلمة ، والصغار بدور الطلاب . ثم إن المدرسة أحرقها الغزاة . وتصورت (بي) ، وقد تعلقت بذروة شجرة الجوز ، وهي ترى خط أشجار الموز الخضراء في المدرسة ، أنها ترى الأحرف المدورة ، التى كتبتها المعلمة على اللوح الأسود بالطبشور الأبيض ، تتطاير حول

www.alkottob.com

الأشجار . المعلمة ، التي كانت تغني أحسن غناء ، انضمت إلى صفوف الأنصار ، وكانت مع أمها في الزورق . ولكن كيف حدث أن النار لم تطلق ! . وسألها الصغار ، وهم يمدون نظراتهم الحسود إلى (بي) :

– هل ترين أمنا ؟

وكأن (بي) تملك أجنحة تتيح لها أن ترفرف هنالك ، وأجابت (بي) ، وقد خالطت نظراتها العلامات الغريبة المرسومة بالطبشور الأبيض :

– لم أرها حتى الآن .

انزلق الصغير الذي تحمله (تانه) حتى ركبتيها دون أن تنتبه ، فقد كان يشغلها ما يمكن أن تراه أختها (بي) .

– متى تعود أمنا ؟ عما قريب ! أليس كذلك ؟

لم تجب (بي) ، وظلت تنظر في اتجاه المدرسة . أسند (هيان) الصغير بطنه إلى جذع الشجرة ، وهو يتثاءب ، كأنه يلح على أخته بالأسئلة .

وكانت (بي) صارمة :

– هيان . بماذا أوصتك ماما ، وهي تغادرنا ؟ ألا تذكر ؟

– ولكني لا أخوض في الماء .

ـــ قالت ماما عندما أمضي إلى المعركة فلا يجوز استدعائي .

وارتفع صوت من البيت المجاور :

– قولي لي يا (بي) من الذي يطلب ماما ؟

– إنه (هيان) يا جدتي .

الواقع أن الجدة لم تكن غير الجارة (سوهو) .

– ألا تريدون أن تكون أمكم مرتاحة ؟ إنها في المعركة . كونوا عاقلين وإلا فسوف تنالون العقاب . هل فهمتم ؟ أما أنت يا (بي) فأولى لكِ ألا تصعدي الشجرة . إخوانك وأخواتك سوف تلتوي أعناقهم وهم ينظرون إليكِ .

www.alkottob.com

– أصعد لأرى ماما .

– ولكني قلت لك إنها في المعركة . فكيف تستطعين معرفة مكانها ؟ وانفجرت البنت ضاحكة ، وهي على قمة الشجرة .

– يا جدتي انظري ها هي ذي البقرات تلتهم البطاطا في حقلك .

هو .. هو .. هيا .. هيا .. حسناً لقد ذهَبَتْ . عند ما عادت ماما كنت تطعميننا من بطاطاتك . أليس كذلك .

– ياللبنت المضحكة .

لقد أصبح من عادة الجارة العجوز أن تتدخل في شؤون هؤلاء الأطفال . كانت تؤنبهم وهي منصرفة إلى أشغالها . ويستمر الأطفال في ألعابهم . لأن تأنيبات العجوز طالما أنقلبت إلى ثناء .

كانت (تانه) أصغر من (بي) ولم تكن ثرثارة ، وتبدو طيعة عملاً أكثر منها قولاً ، وهكذا بعد تأنيب السيدة (سو) حملت الصغير بين ذراعيها ، وجرّت (هيان) إليها ، وأنزلت (آنه) من الشجرة . ولم يكد الأطفال الأربعة يجتمعون حتى عادوا ينظرون إلى أختهم البكر « بي » .

كان كل واحد منهم يفكر ، على طريقته ، في والدته . (هيان) يرى أن الظل الندي ، الذي تغمر به شجرة الجوز الأرض ، يشبه تماماً ملامح وجه أمه . أما (آنه) فكانت ، لتخدع نفاد صبرها ، تعد ، عقلياً ، عدد الرصاصات اللامعات التي تستخدمها أمها لكي تعلمها الحساب . وقد سرّت هذه اللعبة الطفلة الصغيرة سروراً بالغاً . الصوت الأليف صوت أمها يعدّ « واحد .. اثنان ... ثلاثة » خيّل إليها أنّه يرنّ في ذروة شجرة الجوز ويأوي إلى أذنيها .

لم تقلق (بي) لغياب أمها . لقد أصبح تسلّق قمة شجرة الجوز عادة يومية تمارسها . هذا التسلق كان عزيزاً عليها مثل وجود شجرة الجوز نفسها أمام البيت . عندما بدأت تلثغ بعض الكلمات ، كانت الشجرة أعلى ثلاث مرات من البيت ، وكان جذعها قد ثقبته رصاصات الجيوش الفرنسية .

الأم تعرف عن ظهر قلب قصة كل جرح أصاب الشجرة . عندما أسندت

www.alkottob.com

(بي) بطنها الأسمر ، الذي لوحته الشمس ، إلى جذع الشجرة ، وحاولت تسلقها أول مرة ، أطلقت الجارة العجوز صرخات مدوية ، ولكن أمها اكتفت بالضحك . وصعدت (بي) الشجرة مثل وباء ، وهي تمد عنقها ، وعيناها السوداوان تحدقان بذروتها ، وجعلت تصعد منذئذ إلى مكان أكثر ارتفاعاً ، وذات يوم بلغت غصناً ، ووقفت فوقه منتصبة مبهورة ، وتجرأت فمدت نظرتها إلى بعيد . هنالك كان كل شيء مدهشاً : السماء والأرض وأدغال الموز وظلة الخيزران . في ذلك اليوم قطفت جوزات هند ناضجة يابسة وألقت بها إلى صحن الدار . وعندما سمعت الأم ضجّةَ الثمار الصماء ، وهي تضرب الأرض ، توقفت عن العمل لحظة ، وقالت لنفسها : إنها منذ الآن تستطيع الاعتماد على ابنتها في كثير من الأمور . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الأم تغيب في كثير من الأحيان عن البيت لتنصرف إلى مهماتها ، وصارت (بي) تكلف نفسها السهر على أهل بيتها .

لقد أصبحت شجرة الجوز قليلة الارتفاع في عيني البنت ، بل هي قد فقدت شيئاً من ارتفاعها ، فكانت تتسلقها كل يوم . تلعب لعبة المراقب المكلف إخبار أهالي القرية عن الأماكن التي قصفتها الطائرات ، وكان يسرها وهي منتصبة على الشجرة أن ترى ، وهي متجهة وجهة المدرسة ، الأحرف المدورة المكتوبة بالطبشور الأبيض تتطاير ، كما يخيل إليها ، وكانت تستطيع أن ترى من قمة الشجرة الأماكن التي يخوض فيها أبوها وأمها المعركة ضد الأعداء . تقع تحت عينيها مشاهد المعبر على النهر والسوق ومشاتل القرع ، وسلاسل أقراط الموز ، والسماء والأرض . إنه شيء مدهش حقاً أن يكون كل شيء في (تام نغي) صغيراً إلى هذا الحدّ . لعل الأم هي التي دبرت ، هكذا ، كل الأشياء مع الأعمام والخالات .

وفجأة علت غيمة من الدخان من جانب النهر . وقفت (بي) منتصبة على رؤوس أصابعها لكي تكون رؤيتها أوضح . هل بدأت الماما هجومها ؟ بدت لها أولاً وكأنها نقطة صغيرة سوداء تحت صف من الأشجار . عندئذ تجمع إخوانها وأخواتها تحت الشجرة وغمروها بالأسئلة :

– ستعود ماما .. قريباً .. أليس كذلك ؟

www.alkottob.com

– هل رأيت ماما ؟

لم تجب (بي) وعيناها تحدقان بعمود الدخان الذي يزداد ارتفاعاً . هل تراها أمها ؟ وجعلت تبصبص بعينيها . وملأت الريح الندية القادمة من النهر رئتيها ، متغلغلة في فمها المفتوح على مداه .

– هل رأيت ماما ؟ لماذا لاتجيبين ؟

أقنعتها الأسئلة الملحاحة التي يلقيها إخوانها وأخواتها أنها رأت أمها حقاً . أمها التي تندفع في الهجوم ، وتستولي على بنادق الأعداء ، وتطاردهم وهي تقفز فوق السواقي والخنادق .

خيل إليها أنها ترى أمها تطلق الرصاص ، وتقذف القنابل اليدوية وتحمل فوق ظهرها ذلك المربع الخالد ، من القماش ، الذي لاينفذ منه الماء وقد بلله المطر . شعرت (بي) فجأة بندى لذيذ يصعد إلى خديها كأن أمها تدغدغها بيديها . هاتان اليدان اللتان طالما داعبتا بطن (هيان) الصغير . وصرخت (بي) من قمة الشجرة :

– ها هي ذي ماما ، وهاهن النصيرات يجرين وراءها .. ماما تصفّر وتشير بيدها ، بل هي تشير إلي .

وضحكت الطفلة بكل ما لها من أسنان فأرية صغيرة .

قالت في صوت عال :

– يا (هيان) . لقد حظرت عليك ماما السباحة في النهر . أما أنت يا (تانه) فأمك تطلب منك أن تعدي الهريسة للصغير . ستعود ماما بعد لحظة .. أنظري ؛ هذه ماما تقذف قنبلة . مرحى .

– ألم تستدعني ماما يا (بي) .

– أهذه أنت يا (آنه) ؟ .

– نعم .

– لم تقل عنك شيئاً .

www.alkottob.com

كانت ضفيرة (آنه) تتحرك كثيراً وتتمايل .

– بل أمي قالت لي شيئاً .

– ماما لاتحب أن تتشاجر الأخت مع إخوانها وأخواتها .. ها هي ذي تلاحق العدو . إنها تتسلق شجرة جوافة . هل ترينها ؟ أنظرى ها هي ذي ترفع راية ثم تطلق النار .

ظلّ الأطفال يفتحون أفواههم عجباً كأنهم عصافير صغيرة .

– ماذا ترين أيضاً ؟ ..

– أنا لا أرى شيئاً .

كانت السيدة العجوز (سو) تسقي شجيرة التنبول فرفعت عينيها إلي (لي) :

– أرأيت حقاً ماما يا (لي) ؟

– نعم رأيتها حقاً .

– لاشك أن الأطفال في هذه الأيام أصبحت عيونهم مدهشة .

كانت تسقي وتتحدث :

– ولكن المسافة بيننا وبينها تستغرق نصف نهار ، فكيف استطعتِ أن تري أمك ! إنها في المعركة فدعيها هادئة . هل فهمت يا (لي) .

– تماماً يا جدتي .

ولكن المعركة لم تبدأ ، لأن عمود الدخان لم يلبث أن انقشع ، وظل برج المراقبة القائم قرب كنيسة (بامي) سليماً لم يمس .

هبطت (لي) من الشجرة ، وخيل للأطفال أن أختهم الكبرى جاءت بأمهم معها ، ولكنهم ، عندما رأوا أنها ليست معها ، عادوا يرفعون أنظارهم إلى الشجرة ، فجمعتهم (لي) وعرضت عليهم :

– لنلعب لعبة المدرسة . ومن كان طالباً نجيباً أرسلناه إلى المدرسة فعلاً .

www.alkottob.com

جعل (هيان) يقفز فرحاً :

– سأحاول الدراسة تماماً وستسمح لي أمي بإطلاق الرصاص من البندقية . أليس كذلك ؟

رفعت (آنه) ذقنها الحادة :

– سأكون خيراً منك ، وسأكون أول من يذهب إلى المدرسة .

قالت (بي) :

– حسناً .. حسناً ، ستذهبان كلاكما إلى المدرسة .

ووقف الأطفال في صف ، وأعادت (بي) ترتيب شعرها وثوبها ، ووضعت على رأسها قبعة أمها المدورة ، وجعلت تجهد نفسها في تقليد مشية المعلمة وسلوكها ، عند دخولها إلى الصف ، وقد تشبثت أصابعها بحافة القبعة ، وقف الأولاد يؤدون التحية للمعلمة وهم يبتسمون . لقد اختفت صورة الأم من أفكارهم ، فهي في راحة منهم لمتابعة معركتها .

وفي صورة طبيعية جداً علقت (بي) قبعتها ، وأمسكت بخيزرانة بدلاً من المسطرة ، واستعملت اللوح ، الذي علقته العجوز (سو) وجماعة الأيل لكتابة الأوامر اليومية على جذع الشجرة ، بمثابة سبورة . كانت (بي) أمية ، ولكن الأنصار علموها تهجية الأوامر اليومية .

جلس « الطلاب » عاقلين يراقبون (بي) ، وقامت هذه بدورها حق القيام ، وبعد أن ألقت على « الطلاب » نظرة يلوح فيها الكبرياء والذكاء ، ضربت اللوح ضربات ، تنبههم إليها ، وظل « الطلاب » يتابعون ، فاغري الأفواه ، ذراع « المعلمة » (بي) ، وجعلت تتهجى :

ياء ميم يم تاء يم تيم[1] ..

و (كانت الجملة) : « فتشوا عن اليانكي وحاربوهم . فتشوا عن العملاء وأبيدوهم » .. انتبهوا نحن نبدأ الدرس .

---

(١) أبجدية فيتنامية .

www.alkottob.com

تهجى « الطلاب » الكلمات ، أما (هيان) ، الذي يلثغ فلم يستطع مجاراة أختيه الكبيرتين . ولكن (آنه) ، ذات اللسان الذرب ، كانت تسبق الآخرين ، وهي تجلس بين (تانه) و (هيان) ، وتفوق أختها طولاً بمقدار رأسها . منذ ذلك اليوم الذي استطاعت فيه التمييز بين أنواع الطائرات المختلفة ، وتحديد أبعاد الإنفجارات ، التي تحدثها قنابل اليانكي ، كانت طول النهار ترعى الصغير بدلاً من (بي) المكلفة بنقل الرسائل العاجلة ، وكانت تفتح عينيها إلى أقصى مداهما وهي تتهجى ، وكان الصغير يلتصق بأخته ، يراقب الأفواه الثلاثة ، ويدمدم بأعلى صوته لكي يثبت حضوره .

رأت العجوز (سو) الأطفال مشغولين بلعبة المدرسة ، فوضعت قدر البطاطا على النار ، وجعلت تقول وهي تجر الكلمات جرّاً ، كأن الأطفال يجلسون حولها :

– أمكم ، عندما كانت في سنكم ، كنا نثني عليها وهي تتسلق أشجار النخل الهندي لتقطف الجوز . لم تكن تملك بطاطا للطعام كما تملكون اليوم .

خارج البيت ، كانت تهب ريح رخية ، أوراق أشجار الجوز الهندي تتمايل فوق رؤوس الأطفال ، وصدى القنابل والانفجارات لايكاد يسمع حتى يختفي . وعاد الأطفال ، بأصواتهم غير المنسجمة ، يتهجون الكلمات ، وهم جالسون عند جذع الشجرة ، التي كانت عندها العجوز (سو) ، في الأيام التي لايهطل فيها المطر بعد الظهر ، تعبىء أكياس العنب وهي تقص على الأطفال الأقاصيص . وكانت النصيرات ، كذلك ، بعد انتهائهن من مغادرة الأعداء وإرهاقهم في مراكزهم يجتمعن هنالك ، ويقدمن ، وهنّ يأكلن الشطائر ، قائمة حسابهن ، ونقدهن لنشاطهن . إن هذا الجذع هو الذي يتلقي كل يوم طعنات القنابل الأمريكية ، وهنا أيضاً بعد مرور الجيوش العدوة ، تبقى أثار المعركة بادية للعيان ، فتهرع (بي) وإخوانها وأخواتها إلى نزع الرصاصات المغروسة في قشرة الشجرة لتسليمها بعد ذلك إلى (موا) في مصنع الذخيرة .

كان ظل الشجرة يداعب ظهور الأطفال ، كما كان يفعل منذ سنوات طويلة ، ويحمل الرطوبة إلى باحة البيت . في هذا الفصل عندما يكون الطقس

www.alkottob.com

حسناً ، تبدو الشجرة ، وقد تخللتها أشعة الشمس ، أكثر ارتفاعاً ، وكانت البقع القاتمة لجراحاتها تردد في وضوح :

– ت ... إم .. تيم ... فتشوا عن اليانكي .... وأبيدوهم !

أبيدوا اليانكي والعملاء معاً . هل فهمتم ؟

كانت الأحرف البيضاء التي كتبت بها الأوامر اليومية تسطع تحت أشعة الشمس . لاشك ، أن أهالي (تام نغي) وهم يعلقون هذه اللوحة على جذع الشجرة لم يشك واحد منهم أنها ستصلح ذات يوم لتكون سبورة في المدرسة . وكانت لعبة المدرسة تتكرر يومياً في الفترات الفاصلة بين القصف الجوي ودويّ المدفعية ، ويظل الدرس كما كان دائماً ، ولكنه يحمل في كل يوم للأطفال اكتشافات وإيحاءات جديدة غريبة . كانت العجوز ، أحياناً ، تزور المدرسة ، وتقدم سلّة صغيرة من البطاطا تخفف من جوع « الطلاب » ، خلال غياب أمهم عنهم ، وكان (هيان) الصغيرة يصرخ ، وهو يثغو ، « اللعنة على اليانك » وذات مرة فاجأت الطفلة (تانه) عضو لجنة الحزب في الناحية ، وهو يراقب صف المدرسة طويلاً ، وقد توارى وراء ضفة النهر الثانية ، وكان يبتسم . وشعرت (بي) حقاً أنها تلبس جلد معلّمة . كانت تلبس على رأسها القبعة المدوّرة ، وتمسك كيساً من الأسل ، وباعتبار أنها معلمة فقد كان عليها أن تحدث تلاميذها حديثاً طيباً ، ولهذا أحنت رأسها لحظة وابتسمت قائلة :

– ابحثوا عن اليانكي وقاتلوهم كما تفعل ماما . هل فهمتم .. هل أنتم موافقون ؟

قالت (تانه) وهي تخفض رأسها وترفع خصلة شعرها :

– موافقون.

وقال (هيان):

– وأنا موافق . أستطيع مرافقة ماما . أليس كذلك ؟.

واستعد (هيان) للوقوف ، ولكن (آنه) أمسكت به وهي تحيط بذراعيها خصره وقالت :

www.alkottob.com

– لن تلحق بها أنت ، بل أنا لأني أستطيع نقل الرصاص إليها .

– ولكن أمي لي .

– بل هي لي ، ومتى كانت لك ؟.

وحاول (هيان) التخلص من ذراعي (آنه) ، فزادت (آنه) من تطويقها له ، وبدأ الشجار ، وكان كل واحد منهما واثقاً أن أمه ستخوله الحق في اللحاق بها إلى الجبهة ، ولم يريا في ذلك أية عقبة : إن القنابل التي تسقط يومياً على طريق (تام نغي) العريضة الظليلة لم تمنعهما من السير فيه في حرية ، كما لم تمنع أمهما من المضي من البيت إلى الجبهة ، ومن العودة من الجبهة إلى البيت . أما سماء (تام نغي) فظلت دائماً زرقاء صافية تمتد إلى ما لانهاية ، سواء أكانت في أوج القصف ، أو خلال لعب الأطفال .

عندئذ حان وقت تدخل الجارة العجوز . وضعت حداً للنزاع وهي تتهجى الكلمات بصوت مرتفع ، وأسرعت (آنه) فأطلقت سراح (هيان) الصغير لتنافس المعلمة في قراءة الكلمات ، وجعل (هيان) يبكي وهو يجهد في تهجي الكلمات ، وتابع الدرس سيره .

طالما أحسّ الأطفال قدوم أمهم في عز الدرس . كانت تمضي دون إنذار وتحضر دون إنذار . واعتاد الأطفال هذه العادة ، على هذه الصورة ، فكانوا لايلحون عليها بالبقاء في المنزل . كانوا يتنازعون امتلاك الأم كما يتنازعون امتلاك السماء ، في (تام نغي) ، أو امتلاك النهر الأدنى ، الضائع في الأبعاد . الأم جزء من هذه السماء المألوفة وهذا النهر المعهود ، إنهم ، وهي تمضي إلى المعركة،يحسون وجودها في البيت ، إن غيمة واحدة تمر تستطيع أن تملأ غيابها ، قمة شجرة الجوز السامقة ، التي تسمح لهم بمدى رؤية بعيدة ، تقربها من أهلها وذويها . كذلك كانت البنت البكر تتصور أفكاراً كثيرة لتهدىء روع إخوانها وأخواتها ونفاد صبرهم ، وهم في انتظار والدتهم .

– « فتشوا عن اليانكي وأبيدوهم » من استطاع أن يتهجى هذه العبارة جيداً ستسمح له أمه بالذهاب إلى المدرسة .

نهض (هيان) في رشاقة يقول : أنا.

www.alkottob.com

وجعل يتهجى ، ولكن (آنه) كشفت أغلاطه وقالت :

– ما هكذا يجب أن يتهجى . لاتدعيه يذهب إلى المدرسة غداً .

لم توافق (لي) على كلام (آنه) بل على عكس ذلك لامتها وهي تفرك حاجبيها :

– يالك من عنيدة . ستبقين في المنزل لرعاية الصغير ، وأنا التي أذهب .

وجعلت (آنه) تحرك يدها محتجة :

– كلا أنا أشبه ماما . دعيني أذهب إلى المدرسة . لن أبقى في البيت .

– ومن قال لك إنك تشبهينها ؟

– أمي قالت إنها تشبهني .

– أأمك التي تشبهك أم أنت التي تشبهينها ؟

– أنفي أنف هرّة يشبه أنف ماما . ألا تعرفين ؟

ورفعت (آنه) وجهها لتبدي أنفها ، وجعلت تتهجى مدمدمة ودموعها تكاد تسيل :

– د .. آنه .. دانه .. إليك ألا تسمحين لي بالذهاب إلى المدرسة ... ؟

وتدخلت (تانه):

– عيناي كبيرتان مثل عيني ماما ؟ أليس كذلك ؟

وصرخ (هيان) وهو يشد شعره :

– أما أنا فشعري مثل شعر ماما .

طالما داعبت الأم رأس (هيان) وهي تقول له : إنها حين كانت صغيرة تعمل خادمة في بيت الإقطاعيين كان شعرها أصفر جعلته الشمس قاسياً مثل شعر الطفل .

ترددت (لي) في حسم النزاع لأنها وجدت أنها هي أيضاً تشبه أمها وتوارت معلمة القرية ، التي كانت تجهد في تقليدها ، في نفسها فجأة ،

www.alkottob.com

وتوقفت كذلك حركة المعلمة ، التي تضرب السبورة بالمسطرة ، وبدت لها صورة أمها أمامها ، وخيل إليها أنها تستطيع عناقها . وبدا صوت (بي) عنيفاً :

– أنتم تتنازعون كثيراً ، وسأخبر ماما بذلك ، ولن يذهب واحد منكم إلى المدرسة . هدوء .

وحملقت في إخوانها وأخواتها ثم مسحت بيدها شعرها الذي تدلى على وجهها ، كما يفعل الشخص الكبير حين يجفف العرق الهاطل على جبهته بعد عمل مرهق ، هكذا كانت أمها تصنع ، عندما تعود إلى البيت فترى الصبيان والبنات ، وتمسح بيدها جبهتها المبللة بالمطر . وضعت (بي) عند قدم الشجرة عصا المعلمة ، وتصورت أن أمها هي التي أسندت بندقيتها إلى دعامة في البيت ، وجعلت تعصر أكمامها وسروالها كأنها مبتلة بالمطر على طريق العودة ، ولمست بإصبعها بطون إخوانها وأخواتها وهي تقول :

– لكل واحد منكم شطيرة .

ثم أضافت مرتبكة ، توارى ابتسامتها :

– وأنا أيضاً أشبه ماما . أليس كذلك ؟

أبدت (تانه) موافقتها ، وأمسك (هيان) بيد (بي) آملاً أن يجد فيها شيئاً ، أما (آنه) فهزت رأسها :

– أنت لاتشبهينها .

– كيف ؟ .

– هذه ليست شطائر .

أدارت (بي) ظهر (آنه) :

– أنت تقولين : أني لا أشبه ماما . حسناً . عندما تعود الآن إلى البيت فلن أعطيك شطيرة ، وسيلقنك ذلك درساً !

قالت (آنه) في صوت تغمره الدموع :

www.alkottob.com

– الحق أنك لا تشبهينها .

– إذن فليس فينا أحد يشبهها إلا أنت ؟

وظلت (آنه) صامتة .

وعاد الدرس إلى سابق عهده بعد هذه المناقشات حول ماما . وبدأ ظل الشجرة يمتد ويتطاول . الريح البحرية التي تهب من النهر الأدنى ، جعلت تحوم حول (تام نغي) ، واختلطت بها رائحة السمك المملح ورائحة قنابل النابالم القادمة من الأكواخ على النهر .

– ت .. أم .. تيم .

وقالت (بي) لنفسها : ينبغي أن أعلم « طلابي » غير هذا الدرس .

انتهى الدرس عندما دعت السيدة (سو) الأطفال لتقدم لهم حبات بطاطا . وبقي كل شيء في موضعه : الشجرة واللوح للأوامر اليومية .

غداً أو بعد قليل تستطيع (بي) أن تجمع أمامها مرة أخرى إخوانها وأخواتها ، وسيرددون الدرس في صوت عال يجذب فضول العابرين . وعادت صورة الأم إلى أذهان الأطفال ، وخيل إليهم أنها تعود أثناء الدرس ، مهيبة الطلعة ، رغم سرعتها وهي تحمل لهم سيلاً من الشطائر المصنوعة من الأرز تعلقها على طرف بندقيتها ، وها هي ذي تنظر إلى الأطفال بعينيها الكبيرتين اللتين يظلّهما حنان واسع ، وها هي ذي تضمهم إلى صدرها .

كادت سلة البطاطا تفرغ حين سمعوا من ناحية (با مي) أصوات إطلاق نار كثيفة . وأسرعت العجوز والأطفال إلى باحة البيت . كان الفضاء يدوي بصدى طلقات النار الحامية . أدار الأطفال عيونهم إلى أختهم الكبيرة ، وأدارت (بي) رأسها كأنها تريد الإصغاء في شكل أوفى ، واختلجت شفتاها قليلا ثم افترتا تماماً وقالت :

– بدأت ماما الهجوم .

وفي طرفة عين كانت على قمة الشجرة .

لم تستطع العجوز الإمساك بها ، فجمعت الأطفال ، عند جذع الشجرة ،

www.alkottob.com

ورفعت عينيها ، إلى ذروتها ، في انتظار الأخبار ، غطى الدخان برج المراقبة في مركز (با مي) . ولم تر (بي) غير جرس الكنيسة بادياً .

وصرخت (بي) بأعلى صوتها :

– هذا صحيح . ماما بدأت الهجوم . إنها تطلق النار . إنها تضرم الحرائق هناك .

تلاشى الأفق قليلاً في الدخان ، الذي غطى الحقول المجاورة .

– ماما أضرمت النار في المركز .

واشتد تبادل إطلاق النار وتسارع دويّ الأسلحة الثقيلة ، وخرج أهل الدسكرة ، جميعاً ، إلى الدروب وعيونهم مثبتة على قمة الشجرة ، وتساقطت هتافات (بي) على كوخ السيدة (سو) ، واختلطت بضجة الزوارق التى تنزلق في سرعة فوق القناة وبتمتمة (سو) وصرخات الأمهات داعيات أولادهن ، وعلا عمود الدخان . وها هي ذي (بي) ترى نقطة سوداء تعبر كالبرق غطاء الدخان . المكان بعيد ، ولكن من يعلم إذا كانت هذه النقطة السوداء شكلاً بشرياً ؟ ومن يستطيع أن يقول أن هذا الشكل ليس أمها ، أمها هي ؟

– أمي بدأت الهجوم . إلى الأمام يا ماما .

من المؤكد أن الأم توغلت في سحب الدخان ، ومعها النصيرات . المعلمة (تا) التى أحرق العدو مدرستها كانت تتقدم في خطوات سريعة وأصبحت النار أكثر احتداما . وقام محاربونا بالهجوم .

هبطت (بي) من الشجرة . ويمكن أن نذكر أن إخوانها وأخواتها كانوا مستعدين للقتال . (هيان) يحمل رشاشه ، وآنه تحمل بندقيتها الرشاشة ، و (تانه) تحمل بندقيتها نصف الآلية ذات العقب الأحمر ، واكتفى الصغير بحمل راية ، وأمسكت (بي) بعصا الخيزران المسندة إلى الشجرة . إنها غَدّارتها .

صبغت شمس الأصيل ملاءة الدخان باللون الأحمر . الهجوم الذي شنه الأطفال ذهب إلى ما وراء الكوخ ، وبعد أن قفزوا الساقية ، خندقوا وراء جذع الشجرة ، وأطلقوا ناراً حامية .

www.alkottob.com

صباح اليوم التالي وعندما كانت الطائرات تجوس سماء المنطقة . عادت امرأة إلى القرية ، على كتفها بندقية ، وفي يدها أوراق التمويه . سبقتها ضحكاتها وصوتها ، وانسلّ الناس من تحت الأشجار ليصغوا إلى قصة المعركة التي خاضتها المرأة . خلعت المعطف الواقي من المطر ، وسلمت (بي) البندقية ، التى تتدلى منها كومة من الشظائر ، وضمت أولادها إليها . كان عليها أن تتوقف مراراً لكي ترد على أسئلة السائلين ، فكل منهم يريد أن يقول لها شيئاً . كان الصغير ، الذي تحمله على ذراعيها ، يتمتم دون انقطاع ، وهو يزيل الطين العالق بثياب أمه .

كان الأطفال ، الآخرون ، يركضون وراء أمهم ، كما تركض الكتاكيت وراء الدجاجة ، وكانت (آنه) تتقدم قليلاً على سواها خشية أن ينتزعوا حصتها من أمها .

قالت : رأيتك تقومين بالهجوم .

وقال (هيان) :

– وأنا أيضاً رأيتك .

وسألت الأم :

– وماذا رأيتموني أصنع .

– هكذا .

وانزلق إلى الأرض ، وقام بقفزة ، إلى أمام ، مثلما اعتادت أمه أن تفعل ، عند اجتياز الساقية ، أمام المنزل .

ولاحظت (آنه) أن الأم تهتم بـ (هيان) فجرتها من ثوبها وقالت :

– أنثى اللقلق تبنى عشها على شجرة التين الكبيرة . أليس كذلك يا ماما . أنت تحاربين من أجلي ، لا من أجل (هيان) . أليس كذلك ؟

وأسرع (هيان) فأمسك بيد أمه وكاد يتعلق بها ، وكرر وهو يلثغ :

– اللقـ .. لاق .... يبنى عشـ ... عشه من أجلي أيضاً . أليس كذلك يا ماما ؟

www.alkottob.com

وجعلت الأم تضحك ، وتمسّد شعر أطفالها ، جميعاً ، وقالت :

– من أجلكم جميعاً ... من أجلكم كلكم ...

وتدخلت السيدة (سو) ، وهى تحمل سلة البطاطا :

– كانوا معي عاقلين ، يكفي أن تحضر أمهم ، وها هم جميعاً يخترعون قصصاً عن الشحارير واللقالق .

ضحكت الأم ، فبدت شفتاها ، وقد احمرتا من مضغ التنبول . وحملت (هيان) على ذراعها ، وطبعت على خدّه قبلة رنانة . كان ولداها على ذراعيها ، واجتازت في رشاقة المعبر القائم على الساقية ، ودخلت منزلها ، وذهبت فوراً إلى المطبخ .

تلك هي (نغوين تي اوت) بطلة جيش التحرير .

جرت إبادة مركز (بامي) ، وأعيد بناء المدرسة دون تأخير ، وجمعت (أوت) في هذه الليلة أولادها وقالت لهم :

– سأذهب فوراً للبحث عن زورق . أما أنتِ يا (بي) فسترافقين إخوانك وأخواتك لالتقاط القرميد ، الذي تكسر في المركز ، وستبنين به مع رفاقك ملاجىء المدرسة ، وعندما تفتح المدرسة سأسمح لكم جميعاً بالذهاب إليها .

– مرحى . سنذهب إليها جميعاً .

وجعلت (بي) تقفز فرحاً ، فوق السرير ، وتفرد شعر أمها ، وتجهد في مشطه ، ثم في رصفه . وعندما نام الصغير أخيراً ، تهدهده أمه ، غطت الأم ظهرها بغطاء آخر ، فأشبهت شبهاً قريبا المعلمة ، التى تحلم بها (بي) وإخوانها وأخواتها .

وأخيراً طلع النهار الذي انتظروه طويلاً . ذهبت (بي) مع إخوانها وأخواتها إلى المدرسة . كان كل شيء حولها جديداً عليها ، ومألوفاً لديها ، في آن واحد . كانت المعلمة هي النصيرة نفسها التي اشتركت مع أمها في القتال . كانت تمسك ، بيدها ، القبعة المدُوَّرة وتمسك باليد الأخرى عود الخيزران . كانت (بي) تعرف تماماً قاعة الدرس . إنها هي القاعة التى اشتركت ، هي نفسها ، مع إخوانها وأخواتها في بنائها .

www.alkottob.com

ما أشد ما كانت حكايات المعلمة ، عن المعارك ، حلوة آسرة . كان على مكتب المعلمة بندقية لامعة جديدة ، وعندما كانت الطائرات تبدو في الجو ، كانت المعلمة تمسك بالبندقية وتقود طلابها إلى الملاجىء ثم تلتحق بموقعها في المعركة . ولقد أسعد (بي) ، وإخوانها وأخواتها ، أن تطلع المعلمة على شجرة الجوز ، التي استخدموها مركزاً للمراقبة وقاعة للدرس في آن واحد . وكانت أمهم غائبة ، في أغلب الأحيان .

هبت نسمة ريح فهزت أشجار النخيل في رفق ودغدغت وجوه الأطفال وشعورهم ، وشعر الأطفال أن أمهم هنالك قريبة منهم .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

محارب شوبونغ الباسل

نغويسن ترونغ تانه

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كان (كباكو ــ لونغ) يقف على منصة ، ويقدم تقريره عن مغامراته إلى مؤتمر المحاربين المختارين ، والمحاربين الشجعان في منطقة وسط فيتنام العسكرية . لقد وصل حديثاً من جبل (شو ــ بونغ) ، عند نبع (يا ــ مو) في حقل معركة (بلي ــ مي) .

كانت نظرة هذا المقاتل الشاب ، ثاقبة ، مثل نظرات إخوانه الشباب في هضاب الغرب العالية ، وكان جبينه عريضاً ، مسطحاً ، ينم على الهدوء والتصميم ، وكانت شفتاه . ورديتين ، من هذه الشفاه العجيبة ، التي هي من خصائص أناس الأقلية القومية (جيا ــ ري) ، الذين يملكون لغز استنباط الأغاريد والزغاريد من النفخ فى الأوراق البرية .

كان صاحبنا (كبا كو ــ لونغ) جدّ فتي ، لم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وكان منذ فترة وجيزة يلقب بـ « الطفل كو ــ لونغ » في الأغاني والقصائد ، في الهضاب العليا المجيدة البطلة .

هذا الفتى – الشاب ، ذو الأعوام الثمانية بعد العشرة ، كانت له مع ذلك – مزية الاشتراك ، تماماً تقريباً ، في ملحمة شعبه ، التاريخية ، شعب الهضاب العليا ، ملحمة الانتقال من الأيام المظلمة إلى أيام أفضل ، ملحمة الغضب المستمر في مدّ الثورات ، ملحمة الأزمان التي كان يتخلى فيها كل

www.alkottob.com

الناس عن كل شيء ليقدموه إلى أولئك الذين يناضلون ، وسلاحهم في أيديهم .

★ ★ ★

في القرية ، التي هي ، مسقط رأس (كو ــ لونغ) عجوز يسمّى (كسوت) هو أكبر الشيوخ سناً ، ورغم أنه بلغ الثمانين من عمره ، فمازالت قامته مستقيمة شامخة كأنها قمّة صخرة . لم يعرف (كو ــ لونغ) أباه قط ، ولكن إذا صدق شيوخ القرية ، كان أبوه لدة العجوز (كسوت) ، وكان جميلاً شديداً مثله .

ولقد ظلت أجيال الشباب ، خلال عدة عقود ، تستمع ، في نهم ، إلى قصص العجوز (كسوت) ، حول البلد والجبال والأنهار وقومية (جيا ــ ري) ، وكان الشباب يجلسون حول الموقد في بلدية القرية ، التي تقوم شامخة عند سفح جبل (شو ــ بونغ) . كان الجد يعرف كل شيء ، ويعرف ، علاوة على ذلك ، فن إلقاء قصصه ، التي يضيف إليها أشعاراً أو أغاني يرافقها قرع الصنوج العميق الصلب . وكان (كو ــ لونغ) يرتعش تأثراً وهو يسمع هذه الأغاني المدهشة . كان يجرع موسيقاها وكلماتها كما كان يفعل عندما يتجرع لبن أمه ، وماء نبع (يابيا) ، الذي يجري عند مدخل القرية ، في نهم ، طمعاً في أن يكبر سريعاً .

وفي الحادية عشرة من عمره ، اتسع جبينه وأصبح صلباً . كان يقضي الليالي البيضاء الطويلة مصغياً إلى غناء العجوز (كسوت) . وفي الثامنة عشرة كانت توجعه المآسي التي تحل بقومية (جيا ــ ري) . أواه . أيمكن أن يوجد على ظهر الأرض شعب يتحمل من المآسي والتجارب ما يتحمله شعبه ، شعب (كو ــ لونغ) ؟ أيوجد شعب يفرض عليه الأعداء الذل والآلام . كما تفرض على شعبا (جيا ــ ري) العزيز ؟

كان صوت العجوز (كسوت) يرتعش تأثراً وهو يتغنى بانتقام (باك ــ دو) : « كان الوقت ظهراً عندما تفجرت الدماء من صدور مئات الناس ، دماء مواطنينا » ...

لقد أغرقت ثورة (باك ــ دو) الشعبية بالدماء .. ولقد كان أبو (كو ــ

www.alkottob.com

لونغ) من أوائل المشتركين في هذه الثورة ، وفي صفوفها الأولى ، فقُبِض عليه ، وقيد بسلك من الحديد ، وجرّه جندي من جنود (نجو ــ دينه ــ ديم) من شعره الأبيض مثل الثلج ، حتى مدخل القرية عند مجرى نهر (يابيا) . كان يقود هذه الوحوش البشرية أحد (اليانكي) فجاءوا زرافات مسلحة بالفؤوس الحديثة ، والحراب القاطعة ، التي انتزعوها من « المركز العسكري » ، وأشار (اليانكي) إشارة ، فهبطت الفؤوس على رأس العجوز ، وصدره وظهره . كان شعره الأبيض الشائب يعوم على مجرى نهر (يابيا) أحمر قانياً تخضبه دماء جراحه .

عض (كو ــ لونغ) شفتيه حتى أوجعهما . كان ، وهو في الثالثة عشرة من عمره ، يعرف كيف يحبس دموعه . نعم . كان يحتفظ برباطة جأشه . يصغي حتى النهاية إلى القصة التي يرويها العجوز عن جريمة الأعداء ويعرف تفصيلاتها الدقيقة .

أصبح صوت العجوز أكثر سحراً ونفاذاً ، وجعل يتغنى بطلائع أشعة الشمس ، التي بدت على قمة جبل (شو ــ بونغ) . إنها شمس الوطن بنداءاتها الفيّاضة :

– يارجال (جيا ــ رى) هبّوا قياماً . انهضوا مع إخوانكم (بانا) ، و (إى ْدى) ، و (مي نونغ) . مع كل إخوانكم في السهل كتفاً إلى كتف ، إن لكم سيوفكم وحرابكم وأقواسكم ، ارفعوا السلاح ، فعدوكم يجب أن يدفع ثمن جريمته .

لقد دقت ساعة النضال النهائي .

نهض (كو ــ لونغ) فجأة ، وخرج من دار البلدية ، وذهب إلى (بو ــ لانغ) رئيس مناضلي القرية ، وكان مايزال مشغولا بتنظيف بندقيته . قال له :

– خذني نصيراً من الأنصار . أريد أن أقاتل .

نظر الرجل إلى الغلام ، وتذكر ذلك اليوم البعيد الذي استلم ، هو نفسه ، فيه بندقيته ، أدرك (بو ــ لانغ) أن شيئاً عظيماً وكبيراً وخطيراً يعتلج في نفس (كو ــ لونغ) ، لقد أصبح (جيا ــ ري) حقيقياً ، ومع ذلك فقد قال له في

www.alkottob.com

صوت يختلج :

– أتريد أن تكون نصيراً ؟ .. حسناً ، ولكن الوقت باكر جداً ياصغيري . قامتك لاتصل إلى طول البندقية ، ألا ترى ، وأمك عجوز ، وأخوك جدّ صغير ، أقترح عليك خيراً من ذلك ، أن تعمل في النشاطات الثقافية والفنية ، أنت تغني غناء حسناً ، وترقص رقصاً معقولاً ، وأنت تعلم أن الإنصراف إلى هذه النشاطات عندنا مثل قتال اليانكي .

واضطرم صوت (كو ــ لونغ) :

– كلّا ثم كلّا . أنا عازم على القتال ، وسلاحي بيدى .

وأصرّ (بو ــ لانغ) على رفضه :

كان (كو ــ لونغ) يتيم الأب وأمه عجوز ، ولكنه عرف سريعاً كيف يقرر هو ، بنفسه أشغاله ، ثم لاسيترحم أحداً . كان يعرف كيف يصر على أسنانه إذا أصابه وجع ، ويعرف كيف يرد كل إهانة توجه له ، وكان عندما يجوع يذهب إلى الغابة لينبش التراب عن الكمأة البرية .

قضى (كو ــ لونغ) ليلة بيضاء ، ومضى في اليوم التالي ، وحيداً ، إلى الغابة ، وفي يده مقص . لقد انبعث قرار في رأسه ذي الجبهة العريضة والجلد الصلب . إنه سيختار بنفسه طريقته في القتال .

★ ★ ★

ظل (كو ــ لونغ) ثلاثة أيام يهمل زراعة الأرض التي تحرق وتستصلح[1] ، وفي الليلة الرابعة عاد إلى (بو ــ لانغ) ، ووضع أمامه علبة من الأوتاد ، فحصها (بو ــ لانغ) في ضوء النار ، كان فيها خمسة أوتاد مغطاة بالدم . لقد فهم (بو ــ لانغ) كل شيء .

– أين نصبتها ؟

– قرب نبع (يا بيا)، في مكان أعددته منذ زمان ، المغاوير تعودوا إجتيازه ليتغلغلوا في الغابة .

---

(١) Ray . الأرض التي تحرق ثم تستصلح للزراعة .

www.alkottob.com

– وكم من قتيل ومن جريح ؟

أصبحت نظرة (كو ــ لونغ) ، التى ثبتها على (بو ــ لانغ) جدّ قاسية .

– كلهم قتلوا . لقد تتبعتهم حتى الطريق ، فألقوا في العجلة خمس جثث .

قال (بو ــ لانغ)

– حسناً يا (كو ــ لونغ) ذلك نبأ ممتاز لسكان (جيا ــ رى) ، من شباب وكهول ورجال ونساء . أعرض عليك هذا : تعمل في النهار في الأرض المستصلحة ، وتصنع فخاخاً ، فإذا هبط الليل اشتركت في النشاطات الثقافية والفنية في القرية .

أأنت موافق ؟ وخلال بضع سنوات ستنتسب إلى تشكيلة من الأنصار .

سكت (كو ــ لونغ) ، لقد فهم أن عليه أن يعمل عملاً أفضل ليستحق الإنتماء إلى أنصار (جيا ــ رى) ، لائقاً بهذا اللقب .

مضى (كو ــ لونغ) إلى طريق (بلي ــ مي) ، وكانت تنقلات العدو لاتنقطع عليها ، وعند ما رأى الأعداء خيّل إليه أنه يسمع صوت العجوز (كسوت) : لقد انبثقت الدماء من صدور مئات الناس ، دماء مواطنينا . لقد أرهقت هذه الفكرة قلب الشاب .

« يجب أن ننتقم منهم ، يجب أن نبيدهم جميعاً » ولكن يديه فارغتان ، فما العمل ؟ ركض إلى كوخه وعاد إلى الطريق وقد تزود بسهامه وجعبته . منذ كان في الثامنة من عمره ، كان ، مثل كل فتى طيب في (جيا ــ رى) يصطاد العصافير وهي تطير ، وهاهـوذا الآن يصوب السهم إلى حارس من حرّاس الأعداء ، ودون أن تختلج يده أطلق وتر القوس ، كانت الضربة واضحة ، وجرى دم الحارس على الرصيف .

عندما عاد (كو ــ لونغ) إلى (بو ــ لانغ) لم ينبس بينت شفة . من يدري أن عدوّه قد قتل حقاً ؟ خير له أن ينتظره . وفي اليوم التالي عاد (كو ــ لونغ) إلى الطريق ، منذ ساعة مبكرة ، وعقد حواراً مع جندي ، من (سايغون) ، يحمل ضماداً على ذراعه :

– أتؤلمك ذراعك ؟

www.alkottob.com

ارتعش صوت الجندي ، وبان الخوف على وجهه :

– لقد أطلق الفيتكونغ سهماً علي أمس ، ويسعدني أن السهم لم يكن مسموماً .

لقد نجوت وما كدت أنجو . لمع شعاع في عيني (كو ــ لونغ) ، وعاد فوراً إلى القرية .

قالت له أمه تسأله :

– لماذا لم تذهب إلى زراعة الأرض المستصلحة ؟

قال لأمه :

– يا أماه : من يعد السمّ للسهام ؟

صرخت الأم في فتاها . إنها لم تستطع قط منعه من العمل ، وهي تعرف ولدها ، الذي يشبه أباه شبهاً غريباً . إن له . طبعه ، لايكاد يتخذ قراراً حتى يضعه موضع التنفيذ ، سواء أكان ذلك تمهيد الأرض في (شو ــ بونغ) أو تجفيف المستنقع في (يا ــ مو) .

– كان أبوك يعرف وصفة السم (آ ــ كام) ، كان بهذه الجرعة يستطيع أن يقتل مائة من النمور ، أما اليوم ، فلم يبق إلا العجوز (كسوت) يعرف إعداد هذا السم .

ومرت ليلة ، وإذا نحن نرى ، في دار البلدية ، رأساً معروقاً ينحني على رأس الفتى ، عند الموقد ، كان الجوّ جدياً ، فخماً ، كأننا في احتفال بَقَسَم ، كان العجوز (كسوت) يعطي الفتى (كو ــ لونغ) – وَعُمْرُهُ لايتجاوز الرابعة عشرة ثلاثة أسهم مسمومة . إنها سهام لامعة ، مصنوعة من أجود أنواع الخيزران ، قاسية ، قاطعة ، لاتنمو أشجارها إلا في الأراضي الحمراء من الهضاب العالية ، كانت هناك بقعة بيضاء في رأس السهم الحاد ، إنها من نسغ شجرة (آ ــ كام) ، صنعتها خلال أكثر من عشر سنوات . كان صوت العجوز (كسوت) الرصين يرن مثل الصدى يردده جبل صخري :

– ياصغيري (كو ــ لونغ) ، يجب أن تثأر لقتل أبيك ، يجب أن تنتقم لجبال (جيا ــ رى) وأنهارها .

www.alkottob.com

تزود (كو ــ لونغ) بسهام الإنتقام الثلاثة ، وعاد يترصد عند جذع شجرة على الطريق رقم ١٤ ، ظل يترقب زمناً طويلاً ، يجب أن يضربه ضربة صائبة ، وظل ينتظر حتى أصبح ظله عند قدميه ، تقدم جندي من (سايغون) إلى ناحيته ، لم يبق بينهما غير ثمانية أمتار ، تنكب (كو ــ لونغ) قوسه ، وأطلق سهمه ، واخترق السهم بطن الجندي العميل ، فجعل يزأر ويتخبط كأنه سمكة وقعت في فخ ، ورد العدو وجعلت الأغصان تتكسر حول (كو ــ لونغ) ، وقد أصابها الرصاص ، وظل (كو ــ لونغ) ساكناً في مكانه يراقب . لقد مات العميل . أيمكن ذلك ؟

وسأل (كو ــ لونغ) العجوز (كسوت) كيف حدث ذلك ، فقال العجوز في ضحكة صادقة :

– هذا السهم – (آ ــ كام) لايقتل إلا بعد يوم وليلة ، أما السهمان الآخران فالموت بهما فوري .

عاد (كو ــ لونغ) إلى الطريق مرة ثالثة ، وأطلق سهمه الثاني ، فأصاب جنديا عميلاً في صدره ، فانهار إلى الأرض ، ولم يتسع له الوقت لينتزع السهم المسموم . أما السهم الثالث فقد أطلقه (كو ــ لونغ) ، على مسافة صائبة ، فهوى الجندي العميل ، الذي تلقاه أيضاً في صدره ، على الأرض فوراً .

ذهب العجوز (كسوت) إلى مدخل القرية لاستقبال (كو ــ لونغ) . ضم الفتى إلى صدره وذهب به إلى (بو ــ لانغ) .

قال :

– اسمع يا (بو ــ لانغ) ، (كو ــ لونغ) يستحق الآن أن يكون من الأنصار . أعطه بندقية .

وسلم (بو ــ لانغ) لرامي السهام بندقيته الخاصة وثلاث رصاصات .

وقال :

– أيها النصير (كو ــ لونغ) ، كل واحدة من هذه الرصاصات الثلاث يجب أن تقتل عدواً .

www.alkottob.com

كان (كو ــ لونغ) ، في ذلك اليوم ، قد بلغت سنّه الرابعة عشرة بالتمام والكمال .

★ ★ ★

رأى (كو ــ لونغ) في معركته الأولى نفسه وقد أوكلت إليه – وهو يحمل بندقيته من نوع (ما) وثلاث رصاصات – مهمّة أن يجابه عملية تمشيط . ظل من الصباح حتى الظهر ، وهو يتعقب العدو ، دون أن يطلق رصاصة واحدة ، لقد كان فكره مشغولاً بوصية (بو ــ لانغ) : « يجب أن تكون كل رصاصة مقابل حياة عدو . كل رصاصة تخطىء يجب أن تعوض بدفع رصاصة من رصاصات الأنصار » ..

كلّا ثم كلّا ، لن تخطىء رصاصة واحدة هدفها . عيب على نصير من (جيا ــ رى) أن يخطىء الهدف . ولكن أن يكون كل عدو مقابل رصاصة أمر ليس كثير الجدوى ، ألا يمكن أن يفعل خيراً من ذلك ؟ وهكذا استمر في تكثيف الأعداء وجمعهم ، وترقب الفرصة المناسبة . ها هي ذي جاءت أخيراً فقد تجمّع الأعداء لتناول الغداء ، واعتمد (كو ــ لونغ) على جذع شجرة ، وأطلق رصاصة على مجموعة في صف ، كانوا خمسة من الأعداء في سلسلة ، وذعر الأعداء ، واكتسحت الفوضى صفوفهم ، واستفاد (كو ــ لونغ) من هذه الفوضى ، ولم يدعها تفوته ، وانطلقت رصاصة ثانية أصابت هدفها . أما الرصاصة الثالثة فقد صرّها في حزامه في عناية ليردها إلى (بو ــ لانغ) ، المسئول عن القضايا العسكرية في القرية .

ومنذ هذه اللحظة تذوق أنصار القرية عملية اطلاق الرصاص على الصفوف ، أما (كو ــ لونغ) فقد فرضها على نفسه في نظام صارم ، فلم يكتف قط بعدو واحد لقاء رصاصة واحدة ، وهكذا استطاع في معركة لحماية المزروعات ، أن يقضي على سبعة من الأعداء بثلاثة رصاصات ، وفي معركة ثانية دفعت كتيبة من الأعداء ثمناً غالياً في عمليتها : قتل تسعة عشر عدواً بسبعة رصاصات أطلقها (كو ــ لونغ) .

شرع العجوز (كسوت) يغني أغنية جديدة ، وخيل إلينا أن صوته أصبح صوت شاب ، صوتاً صافياً مثل ماء في صخرة : « يارجال (جيا ــ رى)

www.alkottob.com

أتسمعون ؟ انبثق نصير شاب في سفح جبل (شو ــ لونغ) ؛ سكان القرية يدعونه « الأخ الصغير » وأنا أدعوه « ابن أخي » إنه ابن الوطن ، هذا الطفل العزيز ، طفل الجبال والغابات ، في (جيا ــ رى) ، كان يمضي إلى المعركة يحمل بندقية وثلاث رصاصات ، بندقية معجزة وثلاث رصاصات معجزات ، إن عرض طريق (بلي ــ مي) أصبح أحمر بدم العدو ... »

بلغ (كو ــ لونغ) خمس عشرة سنة ، واحتفالاً بعيد ميلاده قدم له (بو ــ لانغ) أربعة ألغام ، وقال له :

ـ أرجو لك نصراً مؤزراً .

مضى (كو ــ لونغ) إلى طريق (بلي ــ مي) ، في (تانه بينه) ، في جبهة حدود (كامبوديا) . كانت الأرض منبسطة مكشوفة تمتد إلى عشرات الكيلومترات ، وظل عدة أيام يتشرد حتى اكتشف ، في حافة الطريق ، أكمة جرداء يتخذها العدو ، في أغلب الأحيان ، مركزاً يغطي منه سير العربات والسيارات .

صنع رُزمة تضم أربعة ألغام ودفنها على الأكمة ، ثم نام في كمين ، وغطى جسده بالتراب ، وترك آثار تراب مبعثر على الطريق . وصلت ثمانى سيارات ، وتوقفت القافلة مذعورة ، عندما رأت هذه الآثار ، وهبط راكبوها إلى الأرض ، وملأوا الأكمة في طرفة عين ، وكان بين الركاب اثنان من (اليانكى) . دعا (كو ــ لونغ) كل مافيه من قوة ، وكل مافيه من عزيمة تراكمت خلال ليال طويلة وهو يستمع إلى أغاني العجوز (كسوت) ، وحشد كل مافيه من تصميم على الثأر ، الذي ينبغي عليه أن يطفئه بعد موت أبيه . ثأره لجريمة (باك دو) ، وانتقامه لآلام شعبه . شد خيط الصاعق ، وحدث انفجار رهيب ، لقد فرغت الأكمة من محتليها ، الرجال الخمسون في القطاع تبددوا شذر مذر .

منذ ذلك الوقت ، لم تنج بقعة من طريق (بلي ــ مى ــ وتانه بينه) من ألغام (كو ــ لونغ) ، كانت هياكل كل سيارات العدو تغطي جوانب الجسر ، حول (يابيا) ، وكانت جثث (اليانكي) تعوم على نهر (يا ــ كلي) .

وانتشرت الإشاعات حتى مدينة (بليكو) : « ظهر أنصار يقومون

www.alkottob.com

بالمعجزات على طريق (بلي ــ مى) . لألغامهم عيون ترى ... » .

في ربيع عام ١٩٦٥ ، أباد أنصار قرية (كو ــ لونغ) فصيلة من الحرس المدني ، بعد أن قاموا بهجوم بالألغام على طريق (بلي ــ مى) ، وهرعت جيوش المركز لنجدة أصحابها ، وأطلقت ناراً حامية ، وأصدر (تين) ، رئيس الأنصار ، أمره بالتقهقر ، وكان العدو كثير العدد ، فاندفع في مطاردة الأنصار .

لم يستطع الأنصار بلوغ القرية إلا عند الظهيرة ، واستدعي العجوز (كسوت) ، فاستفهم وهو يغمز بعينيه :

– ولكني لا أرى (كو ــ لونغ) فأين هو ؟

وقفز العجوز (كسوت) إلى كوخه ، وعاد بعد دقائق يحمل سهام « آ ــ كام » ، وقوسه تحت ذراعه ، وصرخ :

– فتشوا عن (كو ــ لونغ) فوراً ، تعالوا معي .

وجدوا (كو ــ لونغ) عند مدخل القرية ، وهو يغسل في النبع جرحاً بليغاً أصابه في كتفه ، وضمّه العجوز (كسوت) إلى صدره ضمة استجمع فيها كل قواه ، وأجلسه إلى جانبه على صخرة ، وقال الشاب مفسراً :

– بقيت هنا لأغطّي انسحابنا . الأعداء كثيرون على بندقيتي ، لقد تمددت على الأرض ، دون أن أتحرك ، وعندما وصلوا إلى بعد عدة أمتار مني فتحت صمام قنبلتي ، وعددت إلى الثلاثة ثم قذفت بها ، لقد حصدت ثلاثة منهم ، أما الآخرون فقد أصابهم الذعر وولوا مدبرين في فوضى .

بدأ رئيس فريق الأنصار (تين) بتضميد جرح (كو ــ لونغ) بقطعة قطعها من ثوبه ، وقال :

– لقد أصدرت أمري بالانسحاب . ألم تسمع ؟

– بلى ، لقد سمعت ، ولكن يجب أن يكون هنالك من يغطّي الانسحاب ، وكنت أستطيع القيام بذلك مادمت جريحاً ، قد بقيت إذن مستعداً للموت ، فكرت أني صغير ، وأني ، لذلك ، لا أؤدي إلا خدمة يسيرة ، أما أنتم ، معاشر الملاكات ، فيجب أن تعيشوا لأنكم تستطيعون أن تؤدوا خدمات جلّى من

www.alkottob.com

أجل شعبي .

لم يغن (كسوت) هذه المرة . كان في ليالي السهرة ، في دار بلدية القرية ، عندما يصل إلى هذه النقطة ، من حكايته ، يحس أنه لايملك الشجاعة على الغناء ، فيبكي بدموعه النادرة الحارّة بالفرح . إن بلده (جيا ــ رى) له حزبه ، ورجال (جيا ــ رى) جميلون مثل أشعة الشمس .

★ ★ ★

ولم يعد (كو ــ لونغ) نصيراً . منذ سنة جعل يقاتل في وحدة كشافة جيوش التحرير في جنوبي فيتنام ، كتب في طلبه للتطوع بلغة (جيا ــ رى) مايلي :

« أنا نصير منذ كنت في الرابعة عشرة.من عمري ، قتلت ١٢٤ من اليانكي ومن عملاء سايغون ، ودمّرت ثماني شبكات متحركة ، وبما أني أصبحت كبيراً فأنا أرجو من السلطات العليا قبول تطوعي في جيوش التحرير » .

ها هو ذا (كو ــ لونغ) الآن ينتصب واقفاً على منصة المؤتمر ، تزين صدره وردة كبيرة قرمزية ، إنه شاب وجميل مثل شعبنا ومثل جيشنا .

تحية يا (كو ــ لونغ) ، تحية أيتها الهضاب العليا المجيدة البطلة ، تحية ياجيش القوميات الباسلة في فيتنام ، أيها الجيش الذي لايقهر .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

مساء الأحذية الصغيرة في سايغون

نغوين لوك

www.alkottob.com

www.alkottob.com

1

منذ الصباح سمعنا فرقعة الرصاص في الشارع الكبير الذي يؤدى إلى مرفأ المراكب (تونغ فو) في سايغون .

سأل (أوت المصفاه)[1] في قلق :

– ما هذه الفرقعة ؟

كان يحمل صندوق مسح الأحذية بيده ، ويتسكع ، في درب ، في الحي الفقير ، حي (ني — تي) ، وقال في نفسه :

– « ها هم أولئك الجواسيس يطاردون أحد الأنصار ، في هذه الأيام الأخيرة قاموا بغارات لاتنتهي ، أمس لم أستطع الظفر بفلس واحد ، وهذا لا يبشر اليوم بحال أحسن » .

ومضى ، في سرعة ، نحو الشارع الكبير ، لعلّه يعرف ماذا يجري ، وفجأة ،

---

(١) لقب أطلقه زملاء (أوت) عليه لأن وجهة تغطيه آثار الجدري .

www.alkottob.com

رأى رجلاً يركض في الاتجاه المعاكس ، ثم يقف ، ويمسك بذراعه ويعصرها عصراً ، وارتعش (أوت) ، ظنّ أنه وقع في أيدي شرطيّ مدني ، وانحنى الرجل المجهول ، وهو يسرُّ إليه في أذنه :

– ياصغيري ، أنا مقاتل في جبهة التحرير الوطني ، ومكلف بأداء مهمة ، والشرطة تتعقبني ، إذا كنت تسكن قريباً من هذا الموقع ، فخبئني عندك بسرعة .

كان الرجل يتحدث في صوت متهدج . وانحنى (أوت) قليلاً ، وحدق في عينيّ الرجل وهو يفكر : إيه . أيجب عليّ أن أصدقه ؟ ألا يجوز أني أقع في يد جاسوس متستر ؟ في حينا عدد كبير من الجواسيس ، تمّ اكتشافهم ، ولن أقع في يديك يا صاحبي » .

تملّص (أوت) من ضمّة الرجل ، وتراجع بضع خطوات ، ليحسن مراقبته . كان الرجل يلبس قبعة سوداء ، لها مقدمة واقية من اللدائن (البلاستيك) وقميصاً وسروالاً ملطخين بالدهن ، وحذاء من القماش الوسخ ، وقال (أوت) في نفسه :

– « لعلة سائق شاحنة في المرفأ ؟ » .

غمز بعينيه ، ومط شفتيه وقال :

– كلّا ثم كلّا . لاتلعب بي لعبة قذرة ، أنا أجهد كل الجهد ولا أستطيع أن أملأ معدتي ، وأنت تطلب مني أن أصادق السادة أعضاء منظمة التحرير .. هيا ... « جَود باي »[1] .

وزمّ شفتيه ، وجعل يصفر ماضياً في طريقه ، كانت عيناه ، وثقوب وجهه الأجدر ، كأنها تضحك في خبث .

وبعد أن نظر المجهول ، ذات اليمين ، وذات الشمال ، اقترب من (أوت) ، وربت على كتفه في لطف :

– « يا أخي – أنا لا أكذب ، إذا لم تستطع إخفائي عندك ، فدلني على

---

(١) بالإنكليزية في النصّ ، تقليداً للأمريكان .

www.alkottob.com

الأقل على مخرج من المخارج .... » .

دوى الشارع الكبير بزمجرة الدراجات النارية ، وزأرت الأبواق ، وصرخات الشرطة :

– إقبضوا على (الفييت كونغ) ، إقبضوا عليه ، لقد دخل هذا الدرب .

توترت أعصاب الرجل المجهول ، وأخرج من جيبه مسدساً ، وجعل يلقّمه . نظر إليه (أوت) ، مصعوقاً ، لايعرف ماذا يصنع ، وفجأة تركه المجهول ، واستدار على عقبيه ، وولى خافض الرأس في الدرب ، وبان على كتفه الأيسر دم تحت قطعة ممزقة عريضة في قميصه .

جعل (أوت) يركض وراءه ، وهو يحترز من الكلام ، وتذكر أن (تو) ، العامل الكهربائي ، أوقف ذات مرّة ، لأنه أخفى شرطياً ادّعى أنه من رجال التحرير ، ولكن صوتاً داخلياً أوحى إليه : « خير لك أن تتعفن في زنزانة ، من أن تترك مقاتلاً من جبهة التحرير يقع بين براثنهم » .

وجعلت الدراجات النارية تزأر زئيراً أقوى ، وجعل (أوت) يعدو بأقصى سرعته ويقول لاهثاً :

– إسمع : لاتدخل هذا الحي ، ففيه مراكز لرجالهم . وأمسك بذراع الرجل وقال له :

– اتبعني .

كان زئير الدراجات النارية قريباً جداً .

لقد اندفع الصبي بقوة خارقة ، أمسك صندوقه بيد ، وقفز فوق سياج ، من الأسلاك الشائكة ، بسور مقبرة ، ولحق به المقاتل ، ولم يكادا يستلقيان ، وراء قبر يبنى ، حتى اندفعت سيارات الشرطة في الدرب ، وسط إعصار من الغبار والدخان ، ونظر (أوت) ، في شيء من الفخر إلى صاحبه ، الذي كان يمسك بسلاحه بيد متشنجة ، وربت على كتفه في رفق قائلاً :

– أطلق النار . اقتل كل هؤلاء الكلاب .

وابتسم المقاتل وقال :

– يا أخي . ليس هذا هو الظرف المناسب ، سنقتلهم ذات يوم ، ذلك

www.alkottob.com

وعد مؤجل التنفيذ .

أعجب (أوت) بالرجل ، وتمنى أن يعانقه ، ولكنه تماسك وهو يرى الدم على قميصه :

– لعلّه لا يوجعك ، أليس لديك قطعة قماش نظيفة ، أضمد بها جرحك ؟

– حملت شيئاً من الكحول ، ولكن ينبغي ، قبل كل شيء ، أن نبتعد عن الطريق .

– أنت على حق . هنالك قناة ، تكاد تكون جافة ، يمكن أن تكون ملجأ إذا ضايقتنا الشرطة .

قفزا بعد قليل ، في حفرة قليلة العمق ، مغطاة بالأعشاب والأسل ، وتنفس ماسح الأحذية :

– أف . نحن الآن في سلام ، هذه القناة تقود إلى مفرق الطرق في (بان كوى) وفتحة القناة كبيرة ، مثل هذا – ورسم بذراعيه نصف دائرة – ، يستطيع الرجل الكبير أن يجتازها في راحة .

ثم دعا المقاتل إلى الجلوس فوق صندوقه ، وفحص جرحه . كان جرحاً طويلاً يبلغ عشرين سنتمتراً ، ولايزال ينزف دماً ، تردد الصبي ولم يجرؤ على رشه بالكحول ، وجعل المقاتل يشجعه .

شرع الصبي في الضماد وهو يحاوره :

– وكيف استطاعوا اكتشافك ؟

– عندما بلغت دراجتي الجسر الجديد ، بدأ اليانكي ، والشرطة العميلة ، يطلقون ناراً حامية . وافق (أوت) بهزة من رأسه :

– ذلك حق ... لقد وجدتهم يتصرفون كأنهم شياطين ، في هذه الأيام الأخيرة . الرصاص والتفتيش والتمشيط ، أتعرف لماذا كل ذلك ؟ إنهم يخشون هجوماً جديداً ، كما حدث في عيد رأس السنة – التيت – الماضي . حدثني عما جرى بعد ذلك .

– لم يكادوا يشيرون إلي بالتوقف حتى قفزت على الأرض وأطلقت النار على الجنديين الأمريكيين الأقرب إلي .

www.alkottob.com

– وهل أصبتهما معاً ؟
– تماماً .

ولم يستطع (أوت) إخفات صرخة فرح ، وهو ينهي الضماد .
– ثم ماذا حدث؟
– أسلمت ساقي للريح وهربت – كما هو منتظر – ، حاول شرطي أن يحصدني برشاشه – ولكني نجوت بهذه الجراحة – وتتابعت الصفارات والصرخات ، لقد شعر المارة ، وحتى الزبائن الجالسون في المطاعم وقاعات الشاي ، أني رجل من جبهة التحرير الوطني فجعلوا يتكومون على الطريق ويعرقلون عبور السيارت . وركضت ، دفعة واحدة ، حتى دخلت الدرب .

فكّر (أوت) بشكوكه ، عندما التقيا ، في شيء من اللوم والندم :
– لم تكن تريدني ؟
– في أي موضوع ؟
– لم أعرض عليك مخبأ من الوهلة الأولى .

أطلق المقاتل آهة ، وشد على يد الصغير العجفاء في عاطفة :
– لقد أحسنت إذ كنت حذراً .

أحمرّ وجه (أوت) مرتاحاً ، وبدت آثار الجدري قرمزية ، وأجاب الرجل الذي سأله عن اسمه :
– اسمي « أوت » لأني آخر ولد في الأسرة ، وقد أطلق علي الأولاد لقب « أوت المصفاة » .
– وما عمرك ؟
– ثلاثة عشر عاماً .

دوت طلقات من رصاص في جانب حي الفقراء ، وأرهف المقاتل القلق أذنيه ، وشرح له (أوت) ما يحدث :
– لاشيء ... الأمريكان والعملاء يذهبون إلى ذلك الحي كل يومين ، أو ثلاثة أيام .. ويكسرون كل شيء ، لتتاح لهم فرصة النهب ، ويقتلون دون رحمة كل من يعاندهم ، ويحمّلون الفييت – كونغ مسؤولية قتلهم ، ويقتادون

www.alkottob.com

بعض من يعاندونهم إلى السجن .

نظر المقاتل إلى ساعته :

– الساعة التاسعة ... وهل يتأخرون هنالك دائماً؟

– ربما انسحبوا بعد إطلاق النار ، من الجهة الأخرى ، نحو (بان كوي) ... سأمضي وأرى ...

– لا .. لاتذهب ، عليك بالحذر ، وفي انتظار ذلك ، حدثني يا أخي عن أسرتك .

في عام ١٩٦٢ اشترك والد (أوت) في إضراب قام به عمال الأرصفة ، مطالبين برفع الأجور ، وبمعاقبة المراقبين القساة ، وتم توقيفه عندئذ ، وغاب ولم يترك أثراً . أصاب الشلل الأم فاضطرت إلى ترك مهنتها في حمل الماء إلى البيوت ، ودبّر (أوت) أمره ، للحصول على خبزه وخبز أمه ، بعد أن تزوجت أخته في مقاطعة بعيدة ... أما أخوه (باتا) ... وانزعج (أوت) من الحديث عن نفسه .. خاف أن يجلب احتقار محاوره ، فحسم حديثه وهو يقترح :

– سأذهب لاستطلع الأخبار .

وبعد دقيقة من الصمت قال له المحارب :

– أذهب ، ولكن لاتدخل الحي ، اذهب إلى الشوارع العريضة لتكسب زبائن ، لقد تأخر الوقت ، أما أنا فسأنتظر هنا ، وأهرب عندما يطمئنون إلى أن الأمر انتهى .

حاول (أوت) أن يحمله على التعقّل :

– سأعود حالاً . إذا جرت الأمور في شكل حسن أخذتك إلى بيتي .

قال المحارب ؟ وهو يضم كتفه :

– شكراً . أنا مستعجل .

– إذا عدت في يوم من الأيام إلى هذه المناطق فلا تنس زيارتي .

– أكيد ... آه ، عفواً نسيت أن أسألك أين تسكن .

– عند مدخل الحي تماماً .. ما عليك إلا أن تسأل عن السيدة (سو)

www.alkottob.com

المشلولة ، كل الناس يعرفونها .

– حسناً والآن أسرع .. اذهب واكسب بضعة فلوس .

لم يرغب (أوت) في التحرك ، ما أكثر ما كان مسروراً بأن يكون مع رجل من جيش التحرير ... وقرّر أخيراً أن ينهض ليصافحه ، ودمدم :

– إلى اللقاء يا أخي .. أقول لك مرة أخرى إذا عدت فزرني ... قل لي : ما اسمك ؟

– اسمي ؟ ... هونغ .

– حسناً : هونغ ، المقاتل في جيش التحرير ، إلى اللقاء . وهز (أوت) يد المقاتل ، وأخذ صندوق مسح الأحذية ، وفي لحظة غاب بين أدغال من الأسل والعشب .

ظل خياله ماثلاً في ذاكرة الجندي : صبي شاطر ، حسن التصرف ، مجدور ، عيناه ثاقبتان ، قميصه ذو مربعات ، رقّع مراراً ، وسرواله أسود ، يهبط إلى ما تحت ركبتيه بقليل ويكشف ساقين من عظام ، لوحتهما الشمس ، وتغوص قدماه في حذاء عتيق من قماش (بانا) .

ودوّى صوت تصحبه صرخات :

– أمسكوا بالصبي .

فارتعش المقاتل .

كانت الشرطة قد نصبت كميناً عند مدخل الحي ، وقبضوا على (أوت) ، الذي غادر المقبرة ، واصفرّ وجه الصبي عندما رآهم يطلقون النار في اتجاه القبور ويندفعون كأنهم كلاب الرعاة .

★ ★ ★

www.alkottob.com

2

جرّوا (أوت) إلى مركز الشرطة في المنطقة ، وبعد أن مرّ بكل التدابير الإدارية المألوفة ، وضعوه في قاعة التوقيف (النظارة) .

جعل باب القاعة الحديدي الثقيل يصرّ صريراً على مفاصله ، وركله حارس المساجين المؤبدين برجله ، فتدحرج على الأرض الترابية .

– ياكلب . لقد أزعجتنا تماماً ونحن في عزّ لعبتنا بالورق .

حمل المعتقلون القادم الجديد في حذر ، ورأى (أوت) بينهم عدداً من معارفه ، منهم (كو ونغ) بائع الصحف وقد أسنده من ذراعه ، وهنالك غلام يقف إلى جانبه ، ويسأله في عطف :

– ألا تتوجع يا (أوت) ؟

إنه (كبو شوون) وهو ابن أحد الخمير في الحي .

وغمز (أوت) بعينه وقال :

– يا لها من ضربات ، إنها حصتنا اليومية .

www.alkottob.com

كانت القاعة صغيرة ، وفيها ثلاثون سجيناً من الفقراء . أمسك (كو ونغ) بكتفه وسأله :

– قل لي يافتى لماذا قبضوا عليك ، وما هذه « الكدمات » الزرقاء على وجهك ؟

– آه . لقد تجولت في مكان يمنعون التجول فيه .

– أتريد أن تضحك عليّ يالعين ؟ أعرف كيف أجعلك تتكلم .

وثبت (كو ونغ) (أوت) من تحت ابطيه ، وجعل يضربه بركبته على ظهره .

وانتفض (أوت) وقال :

– كفى ! كفى ! ألا تخجل من ضربي ، مرّة ثانية ، بعد أن ضربوني .

وزأر المعتلقون الصغار فرحاً ، وانتظروا دورة ملاكمة مجانية . ودمدم شيخ يجلس عند القرنة :

– أغلقوا أشداقكم ، يا عصابة الأوغاد ، وإلا ضربتكم جميعاً .

فساد الصمت فوراً . وهمهم :

دعوني أهضم شقائي في سلام . عصبة من (اليانكي) قلبت عربتى التي أسوقها بذراعي وحطمتها ، وبدلاً من إعطائي التعويض ، ألقيت في السجن ، وادّعوا أني أعرقل المرور ... اللعنة .. على هذا « الاستقلال الوطني » إنهم جميعاً عملاء الأمريكان ، وما أصنع بأولادي الذين لايجدون في البيت مايأكلون هذا المساء !؟ وعلى كل فدعوني هادئاً . إن المساجين لايدخلون هذه القاعة ليحتفلوا بالعيد .

وجعل يلهث تعباً .

وبدأ فتى حلق شعره على نمط ذيل بطة يعاكسه :

– عربتك وأولادك ذلك شأنك مع « الحكومة الوطنية .. » ، فلماذا تفرغ غضبك علينا ؟

وأسكته (كو ونغ) بإشارة من يده :

– دعه هادئاً . في أمره مايدفع إلى الجنون . أنا أعرفه ، إنه مثل أبي ،

www.alkottob.com

يكسب خبز أسرة مؤلفة من عشرة أشخاص بعربته . وعاد الفتيان إلى أماكنهم صامتين :

مدّ (كو ونغ) يده إلى (أوت) :

– تعالى نتصالح . أسألك في جدّ ، لماذا أوقفوك وقاموا بعملية تجميل لوجهك ؟

– ولكني قلت لك ذلك من دقيقة . عندما خرجت من الحي أصابني قولنج شديد فدخلت إلى المقبرة ، وعندما عدت أمسكتني الشرطة من رقبتي – إنهم يبحثون دون شك عن واحد من (الفييت ــ كونغ) – وضربوني ظناً منهم أني أخفي (الفييت ــ كونغ) .

وتساءل (أوت) في قلق : أتراهم قبضوا على صديقي ؟ هنالك عدد كبير من رجال الشرطة ، ومن الكلاب المدربة .

وسأله (كو ونغ)

– وفيم تفكر . يبدو أنك مستغرق ؟

كان السؤال مفاجئاً فارتعش (أوت) ثم دمدم :

– لاشي ! وأنت مالك ولهذا الكلام ؟

وكشر الآخر :

– أنت تعلم أننا في جنة (سايغون) هذه لانعدم فرصة الذهاب إلى السجن ، لستُ في حاجة إلى إرتكاب ذنب ما ، ألم تسمع « إذاعة سايغون » ؟ سياسة « الإصلاح الاجتماعي » ! إنها خدعة ماهرة لإرسالنا إلى هذا السجن .

قاطعه (أوت) قائلاً :

– كفاك تنميقاً ، وكلاماً معسولا ، كل الناس يعرفون أنك بائع أخبار ، إشرح لنا الأمور في بساطة .

– حسناً . ها هي ذي القصّة في كلمتين : الشرطة تلتقط أمثالي وأمثالك لتقودهم إلى المركز ، أمس قُبِضَ عليّ في شارع (كو كو) ، و (كوشون) ، الذي تراه هناك ، هو بائع بلسم وعطور ، وقد لقي مثل حظي في « السوق الجديدة » ، وسنقضي أياماً ، نصطاف في هذا المكان ، قبل أن نتدحرج في عربة من حديد إلى « بيت إعادة التربية » في (توك دوك) ، وإذا كنت تريد

www.alkottob.com

معلومات إضافية عن هذا البيت فأرجو أن تسأل « أسنان الحصان » هذا ، الذي يقص شعره على نمط ذيل البطة .

غمز (أسنان الحصان) غمزة مهرج قبل أن يقول في بطء :

– حسنا يا أولاد . إن بيت إعادة التربية (الإصلاحية) جنّة حقيقية ، أنا لم أزر حتى الآن جنة الله ، ولكني ذقت في الجنة الأخرى . سعادة .... الخنزير .

وقام بحركة مضحكة ، جعلت مستمعيه يقهقهون ، ثم تابع :

– ولكني أتحدث حديثاً جاداً ، يا أولاد ، إنها سعادة الخنزير ، يقدمون لنا من الطعام ما يقدمونه للخنازير ، خليطاً من الأمشاج والعظام والأرز ، وقد طبخوها معاً في قدر واسعة يطبخون بها طعام الخنازير ، أما ما يتعلق بالتربية الجديدة فيمكن أن تتعلم فيها اللعب بالخنجر ، وإطلاق الرصاص من المسدسات ، وكثيراً من الخدع التي تليق « بجاسوس كامل » أو « المخبر الذي لايخاف ولاتشوبه شائبة » ، وهنالك « حلفاؤنا اليانكي » من حاملي الشهادات المدرَبين ، وبما أني لم أشعر بكفاءتي في خدمة السادة (ثيو) و (كي) وشركائهما ، فقد فضّلت الهرب .

فكّر (أوت) في أمه : « ستموت أمي حزناً إذا عرفت إلى أين سأمضي . » ، ووضع رأسه على ركبتيه لكي يخفي دموعه ، سأله (كو ونغ) ، وهو يربت على كتفه :

– أتنام يا (أوت) ؟

قال وقد ورفع رأسه : كلّا

– أنت تعبان وجوعان ، لم تضع شيئاً في جيبك لتضع شيئاً في بطنك .

– كلّا . ألا يعطوننا هنا ما نأكل .

– بلى . يرمون لنا كلّ صبَاح كسرة من الخبز اليابس ، قطعة من خشب يابس ، طول النهار ، وقد قضمناها كلنا ، وعليك أن تنتظر حتى صباح غد .

لم يكن (أوت) يفكر فى الطعام . كل الحوادث التي مرت به ، والممارسات التأديبية ، التي تعرض لها ، تركته مذهولاً مرهقاً ، ولم يكد يتمدد حتى جلس (كو ونغ) عند رأسه يقول له :

www.alkottob.com

– إسمع . نسيت أن أخبرك أنهم ساقوا (ليان) إلى هذا السجن صباحاً .
– أي (ليان)
– العمى . (ليان) الصغيرة من حارتنا .

ارتجف (أوت) :
– يارب . وأين هي ؟
– في تلك الزاوية هناك ، أخشى ألا تظل حيّة أمداً طويلاً .

واقترب الفتيان من بنت تمزقت أعضاؤها وتشنجت ، تقبع تحت أسمال بالية .

جلس (أوت) وهزها في رفق :
– ليان ! ليان !

فتحت عينيها الكامدتين بضع ثوان ، ثم أغلقتهما بعد أن أصدرت أصواتاً لاتفهم .

قال (أوت) في خفوت :
– ياللمسكينة ! ستموت . من يتولى إطعام جدتها ؟

أخبره (كو ونغ) أن أحد العسكريين الأمريكان ضربها ببسطاره على جوانحها ، وهي تنبش كومة من الفضلات ، قرب بنابة يحتلونها ، في جادة الجسر الجديد ، والتقطتها الشرطة ، وهى فاقدة الوعي .

أحس (أوت) بالدموع تملأ عينيه ، لقد نفي والدا (ليان) ، إلى مكان غير معروف ، في عهد (نغو دينه ريم) ، وعاشت وحدها مع جدتها ، في خرابة في الحي ، كانت تنبش كل يوم ، كومة الفضلات في المدينة ، لتبحث عن زجاجات فارغة ، أو علب محفوظات عتيقة ، لكي تبيعها في السوق العتيقة ، أما ثيابها ، فقد كانت دائماً أسمالاً ، كانت جدتها ، في بعض الأحيان ، تحرم نفسها من ثوب عتيق ، أو سروال قديم ، تعطيه لحفيدتها ، وفي الشارع كان أبناء الأغنياء يطاردونها بإلقاء الحجارة عليها ويصرخون : « إذهبي ، يا سارقة ، يابنت الساحرة . » . وكان (أوت) يتدخل عندئذ للدفاع عنها مستخدماً صندوق المسح سلاحاً ، وكان يقاسمها ، أحياناً كثيرة حصته من الأرز ، ويعتبرها شقيقة له .

www.alkottob.com

انطفأ النهار في القاعة ، وكان المصباح الكهربائي في الشارع يلقي ، عبر ثقب في السقف بقعاً شاحبة كأنها عيون مترقبة ، وكانت دفعات من « الجاز » ، ومن رائحة اللحم المشوي تأتي من الملاهي ، والمطاعم المجاورة ، تحملها الريح إلى آذان المعتقلين ، وأنوفهم .

أصاب الدوار (أوت) ، فاستند على (كو ونغ) ، وبحثا عن زاوية قرب الباب يتمددان فيها .

ولم يلبث (أوت) أن نام ، وهو يحلم بأن (هوغ) سيأتي مع مقاتلي جيش التحرير لإنقاذه .

★ ★ ★

www.alkottob.com

3

إنبلج الصباح . لم يكد منع التجول ينتهي حتى أسرع الناس والسيارات إلى الشوارع ، كأن هنالك لولباً يدفعهم دفعاً ، زمجرت الشاحنات ، وأسرعت سيارات (المارسيدس) و (فورد) و (لنكو لن) الأمريكية تجري بكل سرعة ، خارقة كل قاعدة ، وجمحت الدراجات النارية ، والناقلات ، وقد حملت الزبائن ، وتعلق الموظفون بناقلات (سوزوكي) و (هوندا) وهي تطلق زماراتها وأبواقها ، وأسرع العمال والشغيلة في سيرهم على الأرصفة ، وأعلن الباعة المتجولون عن بضاعتهم ، بمختلف أنواع النداءات والنبرات :

– أرُز بالجوز ... فستق سوداني ....

وصرخ باعة الصحف يرفعون عقيرتهم :

– اشتروا جريدة (تان شونغ) (نغون لوان) ... آخر الأنباء .

ومكبرات الصوت فى الصيدليات والمسارح ودور الخيالة (السينما) جعلت تزأر بضجة تصم الآذان .

بدأت (سايغون) يوماً عنيفاً محموماً .

www.alkottob.com

وفي المطاعم الشعبية الصغيرة كان الصينيون ، وجذوعهم عارية ، وسراويلهم تسقط إلى أدنى من سررهم ، ينتقلون من مائدة إلى مائدة ويكررون بأصواتهم الجهورية طلباتهم لكي يسمعهم من في المطبخ .

– فنجان قهوة بحليب ، المائدة رقم ٢ . ثلاث شطائر محشوة باللحم ، المائدة رقم ٥ ....

والموظفون في المطعم ، أو العمّال ، يتكئون على مناضدهم الصغيرة ، يشربون القهوة السوداء ، وكان بعضهم يسكبونها في جرعات صغيرة ، في صحونهم ليعجلوا في تبريدها .

كان هنالك زبون ، يبدو عليه أنه « موظف » ، يلبس قبعة على طراز (بناما) ويميلها على جبهته ، يبلع سحبة طويلة من لفافته ، ويسأل جاره :

– هيه ياصديق . هل من جديد ؟

ورفع صاحبه صحن القهوة إلى شفتيه ، وغمز بعينيه ، وقال في تمتمة :

– آخر التعليمات : لا إجازة للجنود منذ اليوم ، حتى ٢ آيار .

– هذا واضح . إنهم يخشون هجوم جيش التحرير في أوّل آيار .

– أكيد .

أحد أصحاب الدراجات حاول أن يبدو واسع المعرفة :

– الأمريكان مصابون بالهلع ، وهم يعززون الدفاع عن العاصمة ، (باراس) و (فيرست كاف) و (باك ريد أدن) تجمعوا في جهة (شولون) و (بينه هوا) و (تان سون منهات) ، رأيت في المرفأ عشرات السفن مشحونة برماة البحرية .

وهناك زبون ، يلبس ثياب الموظف والعامل في آن واحد ، يضرب في ضجة عقبيه مبدياً حماسته :

– تلك هي الشجاعة ، ذلك هو الرهان ، الجولة الثانية ستكون أكثر أثراً من الجولة الأولى ، يجب أن نثبت للأمريكان أننا ، نحن الفيتناميين ، لن ندعهم يدوسون أعقابنا .

ذلك أن الشعب ، بعد هجوم رأس السنة (التيت) ، لم يخف رغبته في أن

www.alkottob.com

يرى جيش التحرير الشعبي يكيل الضربات للعدو .

والجو نفسه ، بل ربما أكثر ألقاً منه ، كان يسود حي (أوت) وخاصة بعد هجوم الشرطة وإيقاف الصبي ، بل لقد زعم الناس هناك أن (أوت) أوقف لأنه كان دليل وحدة من وحدات جيش التحرير ، نصبت كمينا وقامت بمعركة دموية مع جيوش « الحلفاء » و « الوطنيين » .

كانت أم (أوت) السيدة (سو) المشلولة يقتلها القلق :

إذا كان مايقولونه صحيحاً ، فإن فرصة ابنها في العودة حياً ضئيلة جداً ، إنه صغير ومتهور ، بل إنه لم يخبرها بما فعل ، كانت تلومه سراً ، ولكنها كانت فخورة به جهراً . فكّرَ إذن .

كل من في الحي ليس له ثوب من قماش ، كل هذا للبلد ، للثورة . وكان قلبها ينقبض إذا ذكرت ولدها الثاني (باتا) « الجندي العميل » .

قالت لزوجة هذا الولد :

– استدعي زوجك ، ليعد سريعاً ، ويذهب إلى دائرة الإستخبارات ، لكي يعرف أين يحجزون (أوت) ، وفي أي مركز .

بذلت زوجة (باتا) جهدها في تطمينها :

– لاتقلقي يا أماه ، في هذه الفترة لايستطيع أحد أن يقترب من الثكنات ، أما (أوت) فسأحاول أن أعرف بعض أخباره .

هذه الكلمات الطيبة أدخلت الطمأنينة قليلاً إلى قلب العجوز ، لقد بدأت تكره كنّتها ، التي تقوم بالخدمة في مقصف في المرفأ . قبل الزواج قالت لابنها :

– أنت تساير الأعداء الذين أضاعوا أباك ، وأنت الآن تريد أن تتزوج مومساً ، إدهن وجهي بالسواد لتغطي به هواني ، إذهب فلن أعترف بك ولداً لي .

وبعد العرس لم يستطع الولد دخول البيت ، ولكنه أصرّ ، منذ قليل ، على أمه أن تقبل إيواء زوجته ، لأنها حامل وعلى وشك الولادة . وأخيراً قبلت السيدة (سو) ، فهي على أقل تقدير ستعنى بحفيدها ، ثم إن الزوجة الشابة لم تكن سيئة إلى ذلك الحد ، لقد أشفقت على تلك اليتيمة ، التي كانت تعمل

www.alkottob.com

خادمة في بيوت الأغنياء ، حتى إلتقطها ولدها في مقصف .

قالت السيدة (سو) لنفسها :

– كنّتي على حق ، ما جدوى أن نفقد صبرنا ، يجب أن ننتظر .

كانت مشلولة ، وما كانت تستطيع الذهاب بعيداً ولكن أذنها كانت حادة ، وعينها كانت ثاقبة . كانت تعرف كل ما يجرى في الحي .

لقد ظهر (تو) ، العامل الكهربائي ، الذي ساقته الشرطة ، ولكنه لم يلبث أن اختفى . كانت الصبايا ، بعد كل ظهر ، يأتين إلى الحي ، لبيع زجاجات العصير ، ويظللن هنالك حتى يهبط الليل .

كانت عجلاتهن جدّ مثقلة عند القدوم وجدّ خفيفة عند الرواح . ماذا عساهن يخفين فيها ؟ فإذا انقضى نصف الليل سمعت أحياناً من ناحية منزل العجوز (بي) ، والعم (تينه) والصغير (هوا) صوت سكاكين يشحذونها ، هنالك غدّوٌ ورواحٌ غريبان يقوم بهما الشباب . شيء آخر ، على الخصوص ، لم يكن يفوت عين العجوز الثاقبة ، ذلك أن السيدة (بي) والسيدة (هونغ) وغيرهما من النساء قمن بشراء كمية كبيرة من الأرز والمؤونة والفواكه من السوق . لماذا ؟ أيكون ذلك تموين جيش التحرير الوطني ، كما حدث في عيد رأس السنة (تيت) الماضي ؟

لقد علّقت كل آمالها على هجوم جديد ، تقوم به القوى الثورية ، ويحرر ابنها الثاني ، ولكن ماهو إذن نصيب (باتا) ؟

ذات صباح اتخذت قراراً عظيماً . حفرت تحت سريرها حفرة كانت دفنت فيها علبة حديد ، كل المال الذي كسبته ، فلساً بعد فلس ، وضعته في تلك الحفرة ، فلما أخرجته سلمته إلى كنّتها السيدة (با) :

– اسمعي . غداً صباحاً ، عندما أكون مشغولة بالصغير ، تذهبين إلى السوق وتشترين بضع دجاجات وأرزاً مسلوقاً وفواكه وموزاً وليموناً .

ونظرت إليها كنتها في دهشة :

– ولماذا يا أماه ؟

قالت العجوز وهي تجهد في جعل صوتها طبيعياً :

www.alkottob.com

– من أجل ذكرى أحد أسلافنا .

بعد ذهاب كنّتها ، شعرت السيدة (سو) أنها أفرغت همّها ، وفكرت :

– سنسوي أمور الأولاد فيما بعد . كل شيء له وقته .

لا أجد أحداً يخبرني بما يحدث ، ولكني واثقة أن رجال جيش التحرير سوف يأتون ، ويجب أن نطعمهم .

وضمت في حنان رضيعها الصغير إلى قلبها .

★ ★ ★

www.alkottob.com

4

أيقظت الانفجارات الهائلة (أوت) من مرقده ، فانتصب وعيناه مثقلتان بالنوم :

– ما هذا ؟

بروق حمراء ألقت أشعة قصيرة على الأرض وتلتها انفجارات وبروق زرقاء . وارتفعت صرخات في القاعة :

– جيش التحرير ... جيش التحرير ، بدأ الهجوم .

وهرع (أوت) مع سائر المعتقلين يلتصقون بقضبان الحديد ليتسنى لهم النظر إلى خارج القاعة .

كانت الشرطة تتحرك في ارتباك كبير وتتبادل الشتائم :

– يالعين ... أين فصيلة (تام) للرشاشات ؟ جاء الفييت كونغ وسيصطادوننا ، أين توارى رئيس المركز ؟ أتراه يدفن نفسه في الخندق !؟ ونحن ... هل نهرب ؟

www.alkottob.com

وارتفع صوت آمر :

– أنتم يا ملاعين ، انتبهوا . أنا (ماي سو) قائدكم ، بدلاً من الرئيس ، سأحرق دماغ كل من يحاول الفرار ، اذهب يا (تام) ، مع جماعة الرشاش ، إلى المعقل رقم ١ ، ومدفع (المورتر) يحمي المعقل رقم ٢ .

وأسرعت خطى ثقيلة في الابتعاد .

وجعل المعتقلون يهزّون باب القاعة وهم يزأرون :

– افتحوا الباب . هل تتركوننا هنا لنشوى بالنار ؟

واقترح أحدهم :

– لماذا نبحّ أصواتنا في استعطافهم ، فلن يفتحوا الباب .

هل بينكم ، مثلاً ، من يحمل سكينا ، أو قضيباً من حديد نكسر به القفل .

أعلن (أسنان الحصان) :

– استطعت أن أخفي مسماراً كبيراً . لعله ينفع .

وسمعوا فوراً صرير معالجة القفل .

في الشارع كان الأهالي ، يضجون ضجة مرعبة ، يضربون بقضبان الحديد ، على الصفائح ، وعلى قدر النحاس ، وغير ذلك من المعادن ، وذلك لكي يؤثروا في معنويات الجيوش ، واجتمع الأهالي أمام المركز ، وجعلوا ينادون الشرطة :

– جاء جنود جيش التحرير ، في مجموعات كبيرة ، إنهم يهاجمون كل مكان ، في (شولون) ، في الحي السادس ، والسابع ، من جهة جسر (بي) ... ، الفصيلة الأمريكية رقم ٢٥ أبيدت تماماً ... الشعب في هذا الحي يثور ... التحقوا بصفوف الشعب .

وسمعوا جواب (بي سو) الغاضب :

– حسناً ... لقد كشفتم عن تأييدكم للفييت – كونغ ، بل إن بعض المستخدمات في مقصف (تان تان) يحملن علم الثوار الأحمر ، حسناً يا (تام) أطلق عليهم رشة من الرشاش .

– لماذا توجهون سلاحكم إلينا ؟ احتفظوا برصاصكم لمواجهة جيش

www.alkottob.com

التحرير . ها هو ذا قادم .

وسُمِعَت هتافات طويلة مدوية في الشارع :

– مرحى يا جنود التحرير .

وارتقى (أوت) فجأة كتف (كو ونغ) وهو يصرخ :

– جاؤوا .. جاؤوا .

وسأل واحد :

– هل تم تحطيم القفل ؟

ودمدم (أسنان الحصان) :

– باللعنة ، مستحيل .

أرني .

واستمرت المحاولة .

دوّى ، في الخارج ، مكبر الصوت في جيش التحرير :

– يارجال الشرطة لقد دقت الساعة الحاسمة ، لاتتبعوا عصابة الخونة (ثيو) و (كي) ، ولا تقفوا في طريق الثورة ، انضموا إلى صفوف الشعب ، وسيعاملكم جيش التحرير معاملة حسنة .

سكت المعتقلون ليستطيعوا الإستماع إلى الصوت ، وهم ينتظرون ردة الفعل في المركز :

ودوى صوت (بي سو)

– الرشاش .. هيا سريعاً ، اضربوا فوراً هؤلاء المتحدثين المتشدقين .

وجعل الرشاش يبصق النار .

وعلّق صاحب العربة العجوز في حدة :

– ما جدوى الحديث مع هؤلاء الشرطة القساة ؟ خير وسيلة لفرض الخرس عليهم أن تبيدوهم .

واستمر مكبر الصوت في نداءاته :

– يارفاقنا في المركز ، مايزال أمامكم فسحة من الوقت ، تعالوا إلينا .

وأمر (بى سو) الشرطي (تام) :

– إسمع يا (تام) ، أطلق رشاشك إلى أبعد حد .

وزمجر السلاح الآلي .

www.alkottob.com

وصرخ معتقل صغير :
– ياعصبة الأنذال . سنكسر الباب لنساعد رجال جيش التحرير .
ورغم الضربات والهزّات ظلّت مصاريع الباب الحديدية مستعصية .
ودوى أمر في الخارج :
– (ب) رقم ٤٠ ، أطلق قنبلة على المعقل ورشاشه .

ولمع برق أزرق ثم هزت المساجين انفجارات قوية ، فإذا هم يتكوم بعضهم فوق بعض ، وإذا الاجر ، والإسمنت يتطايران .

وعلّق صاحب العربة العجوز :
– مرحى ، أحسنوا صنعاً .

ودوى صوت (بي سو) مرة أخرى :
– المعقل رقم ٢ المدفع ، أطلقوا النار ، إسحقوهم إذن ، أبناء الزنا . ورد عليه صوت يقول :
– أنت تتكلم ولكن الأمر ليس سهلاً ، ألا ترى كيف دمرّت قنبلة أطلقها رقم ٤٠ المعقل الآخر ؟ لنرفع العلم الأبيض .

– أي قذر يتحدث عن العلم الأبيض ؟ أروني إياه .
– ها أنذا .

ودوى انفجار .
أمسك (كو ونغ) بذراع (أوت) .
– المذبحة بدأت وتزداد عنفاً .
– أتساءل من أطلق النار ؟ أكان (بي سو) أم الثوار ؟
وعلا صوت في الشارع :
– آه ، انظروا ، العلم الأبيض يرفرف على المركز .
وتزاحمت الأقدام عند مدخل المركز .
وجعل المعتقلون الصغار يصرخون فرحاً .
– جماعتنا ، جماعتنا ...

وتتابعت ضربات شديدة على الباب الحديدي تصحبها نداءات عاجلة :

www.alkottob.com

– يا إخواننا في جيش التحرير ، هيا يا أهالي الحي .... أنقذونا ... خلّصونا .

لم يكد يفتح مصراعا الباب حتى قفز (أوت) في سهولة إلى خارج المعتقل .

قطع التيار الكهربائي ، ولكن مئات من المشاعل ومصابيح الجيب أضاءت الباحة ، كأنها في عز النهار ، حتى عشيت عينا (أوت) ، وألقى (أوت) نفسه على كل واحد من المقاتلين يسأله :

– قل لي : هل (هونغ) معكم ؟

وأجابه واحد منهم :

– (هونغ) ولكن بيننا في وحدتنا جنود كثيرون يحمل كل واحد منهم اسم (هونغ) .

أيكون أخاك ؟ ما شكله ؟

أدرك (أوت) مدى حماقته . كان عليه أن يطلب على أقل تقدير اسم أسرة (هونغ) . وأخذ يصفه بكثير من الحركات . وتحدث عن هربه ومطاردة الشرطة له ... الخ ... وقال له محاوره بعد أن أصغى إليه طويلاً في صبر :

– أرى أن صاحبك (هونغ) هذا أحد عناصر الاستطلاع في الجيش ، من العسير أن تبحث عنه في هذا الزحام ، إذا مر من هذا المكان فلابد أن يقفز إلى بيتك .

وعزّى (أوت) نفسه ، وقد تذكر وعد (هونغ) ، وقرص (كو ونغ) ، الذي شهد كل الحوار ، (أوت) من كتفه قائلاً :

– ياكاتم الأسرار ، لم تحدثني عن شيء من كل هذا !

– أتظن ونحن في أيدي عدونا أن أحدثك عن شيء ، أنا أتمسك برأسي .

كان الصديقان يعرقلان خطى المقاتلين ، الذين احتلوا مركز الشرطة ، تم إخراج رئيس المركز وشرطته القساة من الأقبية والقنوات والمراحيض التي قبعوا فيها ، وقادتهم الصبايا من فوج الدفاع الذاتي ، وعلى أذرعتهن أشرطة حمراء ، إلى مقر اللجنة الثورية ، في الحي ، وكانوا يختلجون ويرتعشون لمحاكمتهم .

www.alkottob.com

أنزل علم العملاء ذو الخطوط الثلاثة ومزق إرباً إرباً ، وارتفع بدلاً عنه علم كبير أحمر وأزرق ، ذو نجمة صفراء ، خاطه سكان الحي .

قال صاحب العربة العجوز في صوت متهدج :

– منذ ٢٠ سنة وأنا أنتظر نجم الحرية الوطنية . سوف أموت قرير العين ، مطمئن البال .

قائد فصيلة جيش التحرير ، وأعضاء اللجنة الثورية ، نصحوا المعتقلين بالاشتراك في الثورات المحلية .

وعرض (أسنان الحصان) :

– ليس لي منزل ولا أهل . اسمحوا لي بالتطوع .

وضغط (كو ونغ) على يد أوت :

– تفعل ما فعل ؟

أجاب (أوت) :

– أما أنا فيجب أن أذهب إلى البيت لأطمئن أمي قبل كل شيء .

وقال (كيو شوون) الخميري ، وهو يوافق بهز رأسه :

– وأنا كذلك ، يجب أن أرى أبي أولاً ، إنه يتقلب على نار لأنه لايعرف أين ذهبت[1] .

كان من عادته أن يخلط لغة الخمير بلغة فيتنام .

وتلفت (أوت) إلى كل الجهات باحثاً عن (ليان) :

– ولكن أين هي ؟ أتراها ماتزال في القاعة !؟

حمل مشعلاً وذهب مع (كو ونغ) و (كيو شوون) للبحث عنها ، وأخبرهما صاحب العربة العجوز أن ممرضة من جيش التحرير حملتها إلى الطابق الأول في المركز .

وجد الفتيان الثلاثة (ليان) ، تكتسي ثوباً رمادياً ، من ثياب جيش التحرير ، تتحدث مع منقذتها ، ومع نساء من الحي ، وتقضم شطيرة دسمة .

---

(١) بلغة الخمير في النص الأصلي .

www.alkottob.com

ورأت الممرضة الصبيّة القادمين الجدد فقالت لهم :

– يبدو أنكم تسكنون جميعاً في حي (ليان) أليس كذلك ؟ حدثتني بذلك (ليان) .

قال (أوت) :

– نعم .

– دعوا (ليان) تذهب معكم .

– حسناً ، ولكنها جد ضعيفة ، فلا تستطيع المشي ، لقد ظلت ممددة منذ عدة أيام .

– لاتخافوا ، كان جوعها سبب خورها ، لقد أعطيتها إبرة واقية ، وأكلت خبزاً وشربت لبنا .

أرادت (ليان) أن تعيد ثوبها إلى الممرضة ، ولكنها رفضت رده وأمسكت بذراعيها وداعبت شعرها :

– احتفظي به ، وإلا تعرضت للبرد ، عودى الآن إلى بيتك .

وزرّت ياقة الثوب .

إحمر وجه (ليان) فرحاً ثم انفجرت منتحبة ، وبعد كثير من التوسلات وافقت على الذهاب مع الفتيان ، كان ثوبها طويلاً جداً ولكنها شعرت أنها فخورة به ، إنها لأول مرة في حياتها تلبس ثوباً لائقاً ودافئاً .

بدأ النهار ، وفي الشوارع بدأ الناس يحفرون الخنادق ويبنون الحواجز ، من البراميل الفارغة ، وكل مابين أيديهم من أثاث : الخزائن والمناضد والكراسي وعربات الأطفال ، وعلى الأرصفة ، كان الفتيان والفتيات في الدفاع الذاتي يتولون الحراسة ، وقد تسلحوا بالبنادق وحتى بالعصي ، وعرف (أوت) فيهم عدداً غير قليل من خادمات المقصف ، ومن التلامذة والطلاب ، ومن عمال (فيناتيكو) ، ومن موظفي المخازن ... وكان منهم ، رغم الشريطة الحمراء ، من يحتفظ بسيماء غلمان اللهو ، بشعرهم المصفوف على نمط ذنب الأوزة ، وبقمصانهم الهفهافة ، من القماش المطبوع ، وبسراويلهم الضيقة ، وكانوا يسألون الأطفال :

– إلى أين أنتم ذاهبون ؟

www.alkottob.com

– إلى (منهي تي) حي الفقراء .
– انتبهوا ، عليكم اللجوء عندما تسمعون أزيز طائرة ، أو دوي انفجار .
– شكراً .

ما أكثر هؤلاء الحرس . ليس بينهم ظل جاسوس أو شرطي .
جعلت (ليان) تجر رجلها جراً ، كانت جدّ مرهقة ، فانحنى (أوت) وقال لها :
– دعيني أحملك على ظهري ، إذا بقينا على النمط الذي تسيرون فيه وصلنا إلى بيتنا غداً .

خجلت (ليان) ، وهي التي لاتنقص إلا سنة واحدة عن عمر (أوت) ، ولكنها أخيراً اقتنعت بعرض (أوت) ، وجَعَل الفتيان يحملونها على ظهورهم ، واحداً بعد واحد . ولكنها لم تكن ثقيلة الوزن .

تتابعت طلقات النار ولم تنقطع ، كان مقاتلو جيش التحرير يهاجمون المكاتب الإدارية في المقاطعة والبنايات التى يشغلها الأمريكان .

وكانت الطائرات والحوامات تزأر في السماء المفتوحة ، يغطيها دخان أسود تنشره القنابل والحرائق .

كان (أوت) ورفاقهُ يمضون في خطوات بعيدة على الأرصفة ، وكانوا يلتقون ، حيناً بعد حين ، بوحدات جيش التحرير النظامية أو بمجموعات من رجال الدفاع الذاتي ، الذين يتوجهون إلى ميادين المعركة ، وتمنى (أوت) من كل قلبه أن يجد (هونغ) بينهم ، وتمنى أن يتحول إلى عصفور صغير ليطير نحو أعلام جيش التحرير ، التي ترفرف في الريح ، على أعمدة الكهرباء ، وعلى سطوح المنازل ، وعلى قمم الأشجار .

★ ★ ★

www.alkottob.com

5

نادى (أوت) بصوت عال وهو يدفع باب الدار :

– ماما ! ماما . ماذا تطبخين في قدرك الكبيرة ؟

نهضت السيدة (سو) بأقصى ما تستطيع من سرعة يتيحها الشلل في ساقها وضمت ولدها إلى صدرها :

– أيها الولد الخبيث وأين ذهبت لتحشر نفسك في هذه الأيام ؟ كل أسرتك قلقة عليك .

وصرخت السيدة (بايا) وهي تضع سلتها الملأى بالخضار على الأرض :

– ياللسماء . ها أنت ذا أخيراً يا (أوت) ، لقد فقدت أمك شهيتها إلى الطعام ورغبتها في النوم طوال غيبتك .

– ألا تعرفون إذن أن الشرطة اعتقلتني في السجن ؟

جعلت أمه تربت على كتفه وظهره ، وقالت بصوت متهدج متأثر :

– بلى نحن نعرف . ولهذا فقد خفنا عليك .

– لولا رجال التحرير لصفوا حسابي حتماً .

www.alkottob.com

وشرح يشرح لهما ما حدث له .
وتنهدت السيدة (سو) تنهيدة فرح :

– يسعدني أن رجال التحرير خلصوك . لو أنهم أخذوك إلى (تردوك) لتتبع دورة الجواسيس والمخبرين فأين سأواري خجلي وذلي ؟ لقد دنسني أخوك (باتا) بما فيه الكفاية .

وتركت الطفل لتؤجج النار في الموقد :
وسألها (أوت) من جديد :
– وماذا تطبخين في قدرك الكبيرة .

– شورباء بالدجاج . ستذهب زوجة أخيك (شي با) مع الفتيات الأخريات لإطعام جيشنا .

– دعيني أقم بهذا العمل مكانك ، فلعلي أرى (هونغ) في الوقت نفسه ، ونظرت إليه نظرة غير راضية :

– كلا ، بل إبقى أنت في البيت ، وعلى كل حال فاذهب لتأكل . أنت لم تطعم شيئاً منذ الصباح . في القدر أرز بارد .

والتفتت الأم إلى كنتها :
– اسمعي ، اذهبي ، وضعي له طعامه .

كانت الشورباء تغلي على النار . ولكي تمنعها من أن تطوف على الجوانب رفعت غطاء القدر . وتصاعدت أمواج من الأبخرة طيبة المذاق والرائحة تنبىء عن الأرز المطبوخ والبصل فانتشرت في المنزل . ما أكثر ماحلمت العجوز بغذاء عائلي يجمع كل أفراد الأسرة . وأسفاه لقد أرسل زوجها إلى المنفى ، ثم هي لاتدري هل هو حيّ أم لا . طالما أملت أن تحرره الثورة ذات يوم . وماذا عن (باتا) وهو عار الأسرة .

لمعت الدموع في عينيها . وطردت بكمها موجة من البخار حملتها هبة مفاجئة من الريح ، وقالت في صوت منفعل :
– كل يا (أوت) وتعال . سأطلب منك خدمة صغيرة .
– ماذا تريدين يا أماه .

www.alkottob.com

– اذهب إلى (باتا) واطلب منه أن يعود .

– وكيف أبحث عنه يا أماه . هذا مستحيل . المعركة حامية بين المكاتب الإدارية في المنطقة وبنايات شارع الجسر الجديد . ألا تسمعين القذائف والقنابل .

واستمرت أمه تقول في لهجة غاضبة :

– ولذلك فأنا أريد أن أستدعيه فوراً . أيمكن أن نتركه هناك يموت مثل كلب ؟

وفرغ صبر (أوت) بدوره :

– واأسفاه . لقد قضيت أنت و (شي با) أمداً غير قصير في إقناعه ورد عقله إليه . فلماذا تتعب من أجله الآن . ثم إن رجال التحرير يعرضون دائما على الجنود العملاء الانضمام إليهم أو الاستسلام لهم قبل الهجوم عليهم . الفصيلة رقم ٤٠ مخصصة للمعاندين . لقد شهدت ذلك بنفسي في مركز الشرطة .

مسحت (شي با) عبرة عابرة وانحنت على طفلها الذي استيقظ :

– يا أماه . دعي جانباً ما تقومين به من ضجة وجلبة حول زوجي . إن ذلك يوجعني . وأخي (أوت) على حق . ربما استطاع وهو على بعد إصبعين من الموت أن يتوب ويلبي نداء الجبهة.وطاف على السيدة (سو) طائف من الأمل .

دخلت صبية من لجنة الدفاع – الذاتي تقول للأسرة أن تحضّر خنادق – ملاجيء حذراً من المدفعية والقصف المدفعي الذي يمكن أن تقوم بها قوات العدو انتقاماً من الأهالي . ثم مضت على عجل دون أن تقبل شرب كأس من الشاي .

وسأل (أوت) وهو يأكل بين لقمتين :

– أيجب أن نحفر ملاجيء ؟

وأجابته أمه :

– أكيد . لقد شرحت لنا اللجنة الثورية أن (اليانكي) يمكن أن يقوموا

www.alkottob.com

بتدابير قذرة . أشد ما يؤلمني أن ساقي مشلولة وأن زوجة أخيك لم تكد تشفى من عقابيل الولادة . اطلب من جيراننا أن يعينونا في حفر الملجأ .

– دعيني أتدبر الأمر مع (كو ونغ) و (كيو شون) . سنحضر معاً ملجأ لكل بيت من بيوتنا . إن أباءهم مشغولون بأعمال اللجنة .

أنهى (أوت) طعامه ومضى .

كانت الشوارع تتألق تحت شمس أيار (مايو) بأعلامها وبشعاراتها التي تحمل الأوامر اليومية . ومن بعيد لاح علم كبير لجبهة التحرير يرفرف على مقر رئيس الحي ومركز الشرطة الذي أصبح مقراً للجنة الثورية . شعر (أوت) أن قلبه يفيض بالحب لحيه القديم الذي أصبح فتياً جديداً .

كل شيء بدا في عينيه عزيزاً غالياً على قلبه . في دكانها الصغيرة كانت السيدة (تام) مثل عادتها تبسط على فراش من الخيزران أقراط الموز وبعض الحلوى . كان (أوت) في الأيام التي يقبض فيها أجراً طيباً يزور مع (ليان) و (كيوشون) و (كو ونغ) دكان السيدة ويأكلون قطعة شطائر ويسمعون حديث الناس عن حياتهم الصعبة . وفي طرف الحي كانت شجرة من الفوفل ذات أوراق تنتشر كالمظلة وتلقي ظلاً نديا في الصيف ، وكان فتيان الحي وأطفاله عند المساء يلعبون هنالك بالحبل أو بالطغراء والنقش ... وعند قدم الشجرة التى يرفرف عليها علم « جيش التحرير » .

وكان الأهالى ، وقد انبسطت أساريرهم يروحون ويغدون ويسألون (أوت) في حنان :

– متى تحررت من السجن ؟ ألم يعذبوك كثيراً ؟

كانوا يطمئنون على صحة أمه ، ويسألونه عن أخبار أخيه (باتا).إن الناس ، إذن ، لم يعتبروا أسرته شيئاً ضاراً رغم (باتا) .

كان (كو ونغ) يحفر التراب أمام بيته ، فسأل (أوت) :

– أين تذهب ؟ هل أنهيت خندقك ؟

– بل لم أبدأ به . جئت أعرض عليك الاشتراك في العمل .

وقرص (كو ونغ) أرنبة أنفه وقال :

www.alkottob.com

– أما أنت فلا تفكر إلا في الأكل . لقد جلت في الحي بحثاً عن الأخبار .
– إذن فأخبرني عما يجري .
– ليس الآن . فيما بعد ، يجب أولاً أن نهتم بعملنا.كان (كيو شون) يسكن على بعد خطوات من بيت (كو ونغ) . فشرع بالعمل مع صديقيه طبعاً . وسألهما في إعجاب :
– ومن الذي أوحى إليكما بهذه الطريقة من المساعدة ؟
قال (أوت) :
– إنها أمي ، أو على الصحيح لقد قمت بها بعد ما حدثتني حديثها . خلال حرب المقاومة الأولى كانت أمي تسكن في المنطقة المحررة حين قام الفلاحون بإنشاء مجموعات المعونة المشتركة .

وجعل الأصدقاء الثلاثة يعملون في كد وجهد . أحدهما يضرب بالمعول والثاني يجرف بالمجرفة والثالث ينقل التراب . وشرع (كو ونغ) « صاحب الأخبار » يلقي نظرة على الأحداث ويلخصها ببضع كلمات :
– لم نكد نشن هجومنا على جسر (ي) وعلى الجسر الجديد ، وعلى المنطقة السادسة ... حتى ارتفعت في حينا أصوات الصنوج والطبول وصفائح النحاس . عملاء (كسو) رئيس المنطقة وكذلك شرطة الأمن ورؤساء المجموعات العميلة أوقفهم السكان المسلحون بالعصي والمناجل . أما (كسو) وحملة رشاشاته فقد لجؤوا إلى نوع من الدفاع للمقاومة . العامل الكهربائي (تو) ووحدته من رجال الدفاع الذاتي شنوا الهجوم . تسلق (تو) في حذر ونجح في قذف قنبلة خلال كوة الرمي أخرست الرشاش . وألقى القبض على (كسو) وعلى ستة من رجاله دون أن يصابوا بأذى .

حمل (تو) راية الجبهة وشرع يلوح بها . واحتلت مجموعات الدفاع الذاتي والسكان مواقع الأعداء .

كان (كو ونغ) مندفعاً في حماسته وبلاغته ، ينقّط حكايته بألوان من الغمزات واللمزات المعبرة .

ودوت الحارة كلها بأصوات المعاول والفؤوس ، لقد جاء سكان الأحياء في المدينة التي تستعر فيها المعركة ليلتجئوا إلى هذا الحي .

www.alkottob.com

واندفع السكان في حماسة إلى أعمال كثيرة . يحفرون الخنادق . ينقلون المؤن والذخائر للجيش الشعبي ، يقومون بأعمال الأدلّاء لقيادة الوحدات التي تعبر الحي .

كان (كو ونغ) يشجع رفيقيه :

– هيا يا شباب . إذا أنهينا هذا العمل التحقنا بدوريات النقل المدني في الخط الأول . وإنه لعمل ممتع لذيذ .

وأطلق (أوت) فجأة صرخة تعجب :

– ولكننا نسينا (ليان) ، إنها ماتزال ضعيفة ، وجدتها حنت السنون ظهرها . يجب أن نحفر لها خندقا .

وكان الاقتراح وجيهاً قبله الأصدقاء فوراً .

★ ★ ★

www.alkottob.com

6

دهش الأصدقاء (أوت) و (كيوشون) و (كو ونغ) عندما رأوا أمام منزل (ليان) خندقاً جديداً محفوراً ، ورأوا في الخندق البنت وقد تلطّخت رجلاها ويداها بالطين .

سألها (كو ونغ) :

– أأنتِ التي حفرته ؟

– أتظن ذلك . إنه من عمل الأعمام والخالات في الحي . لا أكاد أستطيع رفع الرفش إلا في عناء . ولكني ساعدتهم في وضع التراب فقط .

– وماذا تصنعين هنا ؟

– أنحت بضع درجات لأتيح لجدتي أن تهبط الخندق .

وقفز الأصدقاء الثلاثة إلى الخندق ليساعدوها .

جاء فتيان في الخامسة عشرة وبنت في العاشرة أو الحادية عشرة ليروهم كيف يعملون . وحدق (أوت) بالقادمين الجدد . وفكر :

www.alkottob.com

« لاشك أن أهلهم من الأغنياء . لباسهم من (النيلون) الفاخر . وأكبرهم يبدو كأنه سيد كبير . يضع يده في جيبه وسيماؤه سيماء متعجرف » .

ولم يستطع (أوت) ضبط نفسه فخرج من الخندق وقال لهم :

– حسناً ومن أعطاكم الحق في التحديق بنا كما تفعلون الآن . من أين قدمتم ؟

مَدَّ الفتى الكبير ساقه إلى أمام وترجح كأنه يمهد لرقصة . ورفع إلى عينه اليمنى نظارة أحادية معلقة في جيب قميصه بسلسلة من الذهب ، وأدنى عينيه من أنف (أوت) وصرح وهو ينحنى كأنه سكران :

– حسناً . نحن أبناء مدير المصبغة (العندليب) في شارع (جيا لونغ) هربنا من الاشتباكات وجئنا إلى هذا الحي مع بابا وماما . وقد ضجرنا فجئنا لنرى الناس قليلا . وما في ذلك ؟

وقد تحمل (أوت) مشقة كبيرة حين حبس نفسه عن صفعه :

– قل ، ولا تتصنع الخبث . ولاتمد لسانك (اليانكي) . أتظن أن مالك يسمح لك بجعل الآخرين يكدون ويكدحون . هيا . لاداعي للحوادث . اهبطوا إلى الحفرة وعاونونا يا كسالى .

تدخل (كو ونغ) في شيء من اللطف :

– هيا . ليس الوقت وقت « النظر إلى الناس » وأيديكم في جيوبكم . كل واحد منا يجب أن يفعل شيئا لمساعدة جيش التحرير فى إبادة (اليانكي) . إذا جاءت طائراتهم فأين تلجأون ؟ تعالوا واعملوا معنا .

وترجح الشاب مرة أخرى وتمايل ، وجعلت السلسلة تنوس فوق صدره . واندفع (كيو شون) من أعماق الحفرة ، وهدد بمجرفته أبناء صاحب المصبغة . وكان يدير عينين مخيفتين . كان بياضهما يناقض جلد وجهه الأسمر الداكن . قال :

– مو شو في[1] . ماذا يجديكم الحديث مع هذه النماذج . هيا انزلوا جميعاً إلى الخندق واعملوا معنا وإلا قطعت رأسكم بهذه المجرفة . ورفعها بيده .

---

(١) شتيمة من الخمير .

www.alkottob.com

اصفرت وجوه النظارة الثلاثة . وحاول أكبرهم أن يتمايل قبل أن يطيع. طريقة لحفظ ماء الوجه . وكاد الأصغر يبكي . وقال (أوت) لـ (ليان) .

– اصعدي وأعطيهم سكينك . سينحتون الدرجات بدلاً عنك .

وهمس (كو ونغ)في أذنه :

– يا صديقي .. لاتخفهم كثيراً .

وسألهم في وقار :

– أين تسكنون الآن ؟

وأجاب الكبير مقطب الجبين :

– هناك ، في المنزل الذى يقع خلف العمود الكهربائى

– إنه منزل العم (تان) العامل في مصنع (باستوس)[٢] .

وقال (أوت) لـ (كو ونغ) في صوت خافت :

– إبق هنا لمراقبتهم . سأمضى لأرى من هم هؤلاء الناس في مصبغة « العندليب » ، ومضى فوراً ، وأخذ موقعه عند عمود الكهرباء ليرى ما في داخل البيت .

كانت صاحبة « المصبغة » تكب على حقيبة ضخمة ، وكانت إمرأة مدورة الجسم ، متبرجة ومعطرة إلى أقصى حد . أما زوجها فكان هزيلاً معروق اللحم مثل المومياء ، يجلس على علبه كبيرة مغلفة بالـ (نايلون) . وكان هنالك امرأتان ورجل ، هم من الخدم دون شك ، يرتبون عشر حقائب وأكياس تتكوم فوق الأرض .

كانت صاحبة « المصبغة » تضم بين ذراعيها كيس سفر من (النيلون) عظيم الحجم . وتمسح بمنديل ناعم جبهتها وخديها المبللين بالعرق . وتنتحب وتشكو دون انقطاع :

– شقاء في شقاء . كل ثروتي في الماء . وها أنذا فارغة الكفين . سنموت جوعاً . يازوجي . تلك غلطتك .

---

(٢) معمل السجاير .

www.alkottob.com

كان (تام) يحفر خندقاً مع بعض الجيران أمام الباب ، وتوقف ليدخن سيجارة . فقال للسيدة :

– ولماذا تئنين كل هذا الأنين ؟ ما مصيبتك إلى جانب مصيبتنا نحن الذين عرفنا المصائب منذ ولادتنا ؟ لقد أخذوا نساءنا وقتلوا أولادنا ، وتركونا ندمى حتى الموت . لقد كان نصيبنا السجن والموت .

وأسرعت صاحبة المصبغة تحرك ساعديها السمينين :

– كلا . يا أعمامي وخالاتي ، كلا أنا لا أنتحب .

أعرف أننا في سبيل الوطن يجب أن نستعد للقيام بكل التضحيات . أنا أشكوا فقط زوجي هذا الذي يجلس هنا – وأشارت إليه بحركة غاضبة .

هذا الصباح جاء الفيت – كونغ . عفواً . مقاتلو جيش التحرير وأنذرونا أن حينا سيشهد بعض القلاقل والمعارك ، وأن علينا أن نخلي بيوتنا فوراً .. وكان زوجي بطيئاً مثل سلحفاة . ولم يستطع أن يحمل معه شيئاً من ثروتنا ...

وألقى الرجال الذين كانوا يحفرون نظرة سافرة إلى أكوام الحقائب والأكياس ، وابتسموا . وقال الزوج موبخاً زوجته :

– لماذا تتنهدين حتى ما تكادين تنتهين ؟ ألا تعرفين أن كل شيء يتبدل بقيام الثورة ؟ لو لم يأت أولئك السادة من جيش التحرير لمساعدتنا فكيف نستطيع أن نحمل كل هذه الأشياء ؟ لو أن الأمر يتعلق باليانكي أو بجيوش سايغون ... ولم يعلق أحد على كلامه .

وبعد هنيهة همست الزوجة في أذن زوجها :

– أنت أحمق . أتظن أني قلت ما أفكر فيه ؟ لاشك لو أن الأمر يتعلق بالأميركان أو بأوغاد (سايغون) فيجب أن تتوقع أن ينتفوا ريشنا في كل وقت . ولكن ماذا تتوقع من رجال جيش التحرير ؟

وغمزت عينها في اتجاه (تام) وأصحابه .

– لو عرف هؤلاء الناس ما في كيسي فهل أنت واثق أنهم لن يكسروا رقبتنا ؟ لقد نحت لأني أغطي ما عندى .

www.alkottob.com

هل فهمت ؟ وبالمناسبة أين جهاز الرائي ؟

– في الحقيبة التي عند السائق .

– ياللسماء . هل أنت مجنون لتسلم سلعة بـ ١٠٠,٠٠٠ قرش لخادم .

وصرخت :

– يا سائق . إحمل إليَّ الحقيبة التي سلمك إياها السيد .

وأخرجت رزمة من المفاتيح ، واطمأنت إلى أن رجال الخندق لاينتبهون إليها ، وفتحت الحقيبة وأخرجت الجهاز ودسته في كيسها .

شهد (أوت) الذي اختبأ وراء العمود الكهربائي كل ماحدث . بل لقد أدرك نفاق السيدة . ووعد بنقل ذلك إلى الأعمام في اللجنة .

عندما خرج من وراء العمود ، كان وجه السيدة يتميز غيظا عضبا جعل شرايين جبينها تنتفخ ، في غير هذه الظروف كان من الممكن أن تصرخ .

– يا ص . ماذا تصنع هنا وماذا تراقب ؟

ولكنها اكتفت بالقول :

– هي ... أنت يا صغير . لاعمل لك هنا . إذهب والعب في مكان آخر .

داعب (تو) العامل الكهربائي شعر الصبي بعد أن أصغى إليه في انتباه :

– أحسنت في إبلاغنا .. ولكن لاتخف ....

وأشعل لفافة وتابع :

– أنت تعلم أن رجال التحرير يتحالفون مع كل من يحب الوطن ، كل الذين هم أعداء للأمريكان وخدمهم . صاحب المصبغة وزوجته لم يذهبا مع العدو ولكن مع الثورة . وهذا أكثر مما نتوقع . لقد عاشا حتى الآن بين القتلة واللصوص . أما هي فلا تثق بأحد ... أليس ذلك طبيعيا . ولكنها ستدرك وستعرف من هم رجال الثورة .

خرج (أوت) من اللجنة ، وقد شغلت باله كلمات العم (تو) ولم يجد أمام منزل (ليان) أطفال المصبغة الثلاثة وشرح (كو ونغ) الموضوع :

www.alkottob.com

– لقد أطلقنا سراحهم . لو أنّا تركناهم يعملون لوجب علينا إعادة العمل . خير لنا ألا يزعجونا بعملهم .

وأجاب (أوت) :

– حسناً . سأعود إلى اللجنة . لقد أوصانا العم (تو) أن نتحالف معهم . يكفيهم أنهم لم يلتحقوا بصفوف الأعداء .

هَمَّ (أوت) بالذهاب لإعطاء التفصيلات عندما قفز (كو ونغ) من الخندق وهو يضحك ضحكة النصر :

– هذا صحيح . الدرجات كاملة . (أوكى) نمبر وان[1] . حسناً . على مايرام . معدتي تصرخ جوعاً .

كانت الشمس في السماء ، وكانت القنابل والمتفجرات تدمدم دائماً وتزأر . وغيوم من الدخان الأسود تغطي المدينة .

ومشى الأطفال إلى جانب الجدران ليعودوا إلى منازلهم .

ودمدم (أوت) :

– الأمر يزيد هولاً وعنفاً . سأطلب إلى أمى أن ألتحق بمجموعة النقالين المتطوعين لنحاول معرفة أخبار (هونغ) .

وفكر في أخيه (با) : ليس الذنب ذنبي لو أنه قتل . ولكن عليَّ أن أسمع كلام أمي . هيا نبحث عنها .

★ ★ ★

---

(١) بالأمريكية : حسناً . رقم واحد .

www.alkottob.com

7

دبت الحياة في الحي ساعة بعد ساعة ، عاد بعض الشباب والفتيات من ميادين المعركة يحملون الجرحى . وفوجئت ممرضة كانت على غير استعداد . فساعدتها النساء ، إذ شرعن يغلين الماء ويهيئن الحساء ويروحن عن أكثر الجرحى مرضاً . وانضمت السيدة (سو) إليهن باذلة ماتستطيع من جهد وهي تجر رجلها جراً .

وتكومت في صفوف ، سلال ملأى بالشطائر والفواكه والأرز المسلوق ، وقدور من حساء الدجاج والثريد الحلو أعدت سلفاً لتحمل إلى الخطوط الأولى . وعانت اللجنة عنتاً فى اختيار الذين يحملون هذه المؤن بين جمهور غفير من المتطوعين .

حاول (تو) العامل الكهربائي أن يثني السيدة (بي) عن الذهاب ، وهي إمرأة تجاوزت الستين عاماً :

– اسمعي يا جدتي . دعي هذا العمل لأحفادك !

وردت عرضه بإشارة من إصبعها مستنكرة :

www.alkottob.com

– ويحك لاتمنعني من الذهاب . أنا عجوز وضعيفة والعدو لايوفرني لهذا السبب . سأضمن تموين رجال الجبهة ليأكلوا جيداً ويقاتلوا جيداً . سأعمل ما أستطيع . وإذا حمل الآخرون سلة حملت أنا قفة .

واستسلم (تو) أخيراً وتراجع .

وجاءت مجموعة من المتطوعين يحملون المؤونة . طالب أهالي الحي بمرافقتهم . ووجب على اللجنة التدخل لتأمين العمل .

واشترك الأطفال في الخطة .

جاء (أوت) باحثاً عن أمه وقال :

– ماما دعيني أرافق زوجة أخي .

– ماذا . أيذهب شخصان اثنان لحمل قدر من الحساء ؟!

– سأذهب إذن مع فصيلة المؤن . سيذهب (كو ونغ) و (كيو شون) و (هونغ) و (هو ونغ) وغيرهم من الأطفال . فدعيني أذهب معهم . وستكون في ذلك فرصة للبحث عن (با) وإعادته .

فكرت الأم وهي خائفة على ولدها :

« ليس سيئاً إن استطاع إعادة با »

وبينما هي تفكر ، كان الولد قد جرى خافض الرأس يقول :

– إلى اللقاء يا ماما . يجب أن أسرع . أصدقائي لاينتظرون . ولم يتسع لها الوقت إلا ريثما صرخت :

– إنتبه يا ولدي .

ألحت عصبة الأطفال ورجت اللجنة أن تسمح لهم بمرافقة رجال التموين . وقالت اللجنة منذرة :

– ولكن ستعوقون المقاتلين وستقتلون أنفسكم دون جدوى .

ولم يجد الإنذار ، فلم يكد رجال التموين يمضون ، حتى ركضوا وراءهم سراً ، بعد انتظار قليل .

أمسك (كو ونغ) بذيل سترة تلبسها فتاة تحمل سلاحاً طويلاً ملفوفاً

www.alkottob.com

بقماش غليظ .

– دعيني أساعدك مسافة قصيرة .

– مستحيل يا أخي . السلاح ثقيل .

– دعيني أجرب مرة ، مرة واحدة .

قبلت الفتاة أخيراً عرضه ، ومد (كو ونغ) عنقهُ ، وصر على أسنانه تحت حمله الثقيل . وكان مظهره مضحكاً بساقيه الطويلتين وجسمه الذي يتدحرج .

وكانت مهمة (أوت) أن يحمل صندوقاً كبيراً من المؤونة جعل يرسم خطوطاً على عضلات ذراعيه وكتفيه وعنقه .

كان إذا أحسّ أنه يترنح ، يجهد نفسه كثيراً لكيلا يفقد توازنه ويقول في نفسه :

– حسناً يا (أوت) إذا نكصت تفوق عليك (كيو شون) و (كو ونغ) بل تفوقت عليك (هونغ) الصغيرة . حتى هذه البنت . هيا . ضربة أخرى ، خطوة أخرى وستفجر هذه المؤن المدرعات والدبابات والمعاقل (اليانكية) .

وبعد عشر دقائق من السير صار الصندوق جزءاً لا يتجزأ من جسد (أوت) . كان الأطفال يندفعون إلى أمام ، والرصاص يصفر والقنابل تنفجر في دخان كثيف تنشره المتفجرات والحرائق .

★ ★ ★

تشبث الأمريكان والعملاء بالشارع الذي يؤدي إلى المستودعات . كانت البناية ذات الطوابق السبعة في طرف الشارع تكون نقطة استناد منيعة بما فيها من وسائل الدفاع ، ومن أقبية ومن أكياس رمل ومن مواقع للرمي في كل طابق من طوابقها .

ومع ذلك فقد استطاع محاربونا منذ الهجوم الأول أن يحتلوا الطوابق السبعة ، وجاءت الطائرات وقصفت مدفعية العدو البناية فدمرت جانباً منها وعدداً من البيوت المجاورة لها . ورغم عدة هجمات معاكسة ظل علم جيش التحرير يرفرف منذ الفجر على هذه البناية التي تشرف على المسالك المؤدية إلى

www.alkottob.com

المستودعات وإلى شارع الجسر الجديد .

تراجع العدو نحو الشوارع التي هي أقل تعرضاً للنار ومواجهة لجيشنا . وخندق وراء أكوام من الآجرّ ومن بقايا الجدران المسلحة بالإسمنت ، وجعل يصب على البناية سيلاً من الرصاص والقنابل . وظلت النيران يتبادلها المحاربون دون انقطاع ، وكأنها نسيج كثيف في الشارع .

وتوقفت قافلة الذخيرة والمؤونة ومجموعة نساء حي (أوت) في زاوية الشارع لايعرفون كيف يتقدمون .

– « ولكن أيمكن أن نتخلى عن المهمة ؟ أيمكن أن نعود عندما يكون جيش التحرير في انتظارنا ؟ »

وبعد مناقشات حامية اتفقوا على خطة ؛ وتعهد (تو) العامل الكهربائى ، وقد تبللت ثيابه بالعرق ، بتأمين تنفيذها .

توجهت عشر نساء تقودهن السيدة (بي) إلى موقع العدو بعد أن تخلين عن كل حمولتهن ، وبقي الآخرون مستعدين بكل ما يحملون من قفف وسلال وصناديق ، لاجتياز الشارع والاتصال بمحاربي التحرير .

والتحق (أوت) بالفصيلة الأولى في محاولة للبحث عن أخيه . وعندما اكتشفت حيلة الصبي كان قد فات الوقت لإعادته . وكان (أوت) رشيقاً مثل سنجاب ، فمشى على رأس الفصيلة ، وكان يجرى ويتعرج ليختبىء فى زوايا البيوت ووراء أعمدة الكهرباء وجذوع الأشجار .

أزت رصاصة فانحني وجعل يقول ساخراً :

– شيء جميل . لاتخدشوني ، فأنا حريص على بقاء رأسى فوق كتفي .

وأوغل في بيت مجاور وصاح :

– ياسيدة (بي) مري من هذه الناحية .

وتبعته وهى تقول :

– ألا يؤذيك أن تكون دليلاً .

والتفتت إلى النساء الأخريات قائلة :

www.alkottob.com

– تعالين من هنا ولاتخفن . لومتنا هنا كان موتنا موتاً جميلاً .

أدرك محاربزنا أن نضالاً سياسياً سوف يثور ، فركزوا نيرانهم على زاوية ، ليساعدوا الفصيلة على الوصول إلى بيت أصبح كومة من آجرّ عند جناح الأعداء . وتسلق (أوت) الأكمة وانزلق ثم تدحرج . ولكن أحد حذاءيه الفخمين من نوع (باتا) انتزع من قدمه ، فألقى بالثاني ليكون أكثر حرية في حركاته . وتشبث بالأنقاض وبقطع الآجر ، وعاد إلى التسلق ، وهو يمسك بيديه السيدة (بي) التي تجر وراءها سائر النساء .

عندما كف الأنصار عن إطلاق النار كف العدو وساد السكون .

كانت السيدة (بي) واقفة على تلة من الآجر المنكسر ، يتلألأ شعرها الأبيض في أشعة الشمس ، فصاحت وقد وضعت يدها على فمها كأنه مكبر صوت .

– هيه يا رجال الجيش « الوطني » .. لاتطلقوا النار : اسمعوني أولاً .

كلف الأعداء أحد جنوده العملاء ليذهب إليها ويسألها عما تريد . فأمسكت بيده وجرته قائلة :

– قدنا إلى مركز القيادة .

وتبعتها صاحباتها .

كانت الكتيبة كتيبة « مغاوير » من قساة المغاوير . وقالت السيدة بي للنقيب في نبرة حادة :

– آه . أأنت القائد هنا ؟ ألا تدع لنا لحظة من الراحة لنمضي فنبحث عن شيء لنا في خرائب بيوتنا .

وهز الضابط يده :

– ماذا تفعلن هنا ، ولماذا جئتن . أتريدون شن نضال سياسي أو القيام بدعاية بين جنودنا . أنظرن ها هوذا رشاشي وهو لا يمزح .

وصرخت السيدة (بي) :

– ولم ذلك وماذا تقول ؟ ليس لنا علاقة بكل هذا . نحن نريد فقط أن ننبش

www.alkottob.com

ونستخرج بعض حاجاتنا من أنقاض بيوتنا .

خلف بقية من جدار استعد الفريق المكلف بإدارة الرشاش لمعاودة قصف الضاحية والشارع ، وتركت السيدة (ثو) فريقها وجاءت إلى الجنود :

– هيه يا شباب . أنتم تضعون سلاحكم تماماً فوق أساس بيتي . مالي وخيراتي وما جنيت في حياتي تحت هذه الكومة من الآجرّ والرمال .

أزاحتهم عن الرشاش وجعلت تنتحب :

– ياللسماء . لقد قضي على ثروتي قضاء مبرماً . ألا ترحمون الشعب . أنتم ترون ما تصنعه القنابل الأمريكية ؟ ابتعدوا قليلاً ودعوني أنبش ....

ورد الجنود في صوت غاضب :

– قولي لنا إذن يا جدتي . هل أنت مجنونة ؟

وجعلت تدفع هؤلاء وهؤلاء.

– حسناً ياحفيدي . أنا في سن جدتك . أليس كذلك ؟ عمري ستون سنة . ألا تعطف على جدتك في بيتك ؟

عندما أفقد كل شيء فأنا معذورة إذا جننت . ضعوا هذه الآلة في غير هذا المكان . هيا ، ساعدوني .

وقامت بحركة لتحريك الرشاش . قفزت الصبايا و (أوت) على الرشاش ليبعدوه قليلاً ، تردد الجنود لحظة ثم قاموا بردة فعل ليتخلصوا ممن يحيط بهم ويحاصرهم . وخلال الهرج والمرج ، فقد الرشاش التوازن فسقط إلى الهاوية وغطست فوهته في الطين والغبار .

وأطلق الجنود الشتائم وصيحات الغضب .

خلال هذه الفترة اجتازت النساء اللواتي يحملن المؤونة الطريق . وألقت الأمهات أنفسهن في أحضان المحاربين ذاهلات . وقمن بتوزيع الشطائر وصحون الحساء والمرق في حب ومودة . أما الجنود الجرحى الذين كانوا موضع عناية فائقة فقد تم نقلهم .

كان (كيو شون) و (كو ونغ) و (تينه) و (هو ونغ) و (هونغ)

www.alkottob.com

وكل عصبة الأطفال لا يكادون يشعرون بأنفسهم من فرط سرورهم . وسألهم أحد المحاربين .

– من هذا الطفل ذو القميص المربع الذى قاد فصيلة النساء هناك ؟

وأجاب (كيو شون) :

– آه . إنه (أوت المصفاة) .. من حينا .

– ياله من فتى باسل . إنه جدير بلقب ابن الأخ العاقل للعم « هو » .. أتريدون أن تكونوا أبناء أخي العم « هو » العقلاء ..؟

وأجاب الأطفال معاً :

– نعم نعم .

وقالت الصغيرة (هونغ) مفتخرة :

– عندنا في البيت صورة للعم « هو » . إن أبي يخفيها جيداً . إنه طالما حدثنا عن العم .

كان النقيب في الجهة الأخرى من الجادة يروح ويغدو ويدمدم ، ويداه في جيبي سرواله . توقف فجأة ، يرمق النساء بعينين يغشاهما الدم :

– هيه ، يا ساحرات . أى دور شيطاني ستخرجنه من كيسكن . أنذركن ، يالعينات ، أنكن تضعن وقتكن في الدعاية هنا . اعرفن جيداً أننا « مغاوير » ، ذوو الأردية السوداء ، وأننا نفضل الموت على الاستسلام : أفهمتن : الموت . يا شباب ، النار ، النار . دمروا عليهم كل هذا .

وتصاعد صوت يتحدى في سوداوية من صفوف الجنود :

– ياسيادة النقيب . لن يكلفنا شيئاً أن نستمع إلى هذر هؤلاء النسوة .

وفرك الضابط حاجبيه :

– أي وغد يتكلم ؟ أتريدون أن تصغوا إلى الفييت – كونغ وتقبلوا هذيانهم : بل لعلكم تريدون الانضمام إليهم . جربوا تروا . وقاطعه أحد الجنود :

– ما هو قرارك يا سيدى النقيب ؟

زأر الضابط :

www.alkottob.com

– قراري أن نقاتل حتى الموت.

وأخرج مسدسه :

– ليستمر من يريد القتال في القتال . أما هؤلاء الأنذال فكم رصاصة بكلفون . أغربوا عن عيوننا فوراً وفي أسرع وقت .

هبت الريح من ناحية نهر سايغون ، تحمل روائح التراب الحامض ، وكانت تتصاعد حينا بعد حين هبات من دخان القنابل وزوابع من الغبار .

★ ★ ★

www.alkottob.com

8

أخذت الحماسة أهالى حي الفقراء في (نهي تي) عندما نجحت الحملة التي قادتها النساء والأطفال ، وأدت علاوة على نقل المؤن والذخائر إلى إجلاء الجرحى ونقلهم إلى مناطق مأمونة .

زار أعضاء اللجنة (أوت) لتهنئته بنجاح الحملة . وأعلن له (تانه) المسئول عن جماعة رواد التحرير ، أنه سوف يتم قبوله عضواً فى المنطقة . وكان الطفل فخوراً جداً فما كان يخطر على باله أنه سوف يقبل ، لأن أخاه مايزال في صفوف الأعداء . وهنأته أمه وعيناها مغرورقتان بالدموع :

– أصحيح يا ولدى ، إنك تعيد لي اعتباري في عيون الناس جميعاً .

ولم تستطع الأم أن تكف عن التفكير في ولدها (باتا) أمايزال حيا ؟ إنه إن لم يعد الآن فمعنى ذلك أنه مات أو أنه في سبيله إلى ارتكاب جريمة ما .

وجعلت الندامة وتبكيت الضمير يعصرانها عصراً . لأنه على كل حال طفلها ، لحمه من لحمها ودمه من دمها . في المهرجان الذي أقيم على شرف النصر . كان تتمنى مثل كل الناس أن ترفع يدها عالياً وأن تصرخ بأعلى صوتها

www.alkottob.com

الشعارات اليومية الثورية . ولكنها لم تستطيع فعل ذلك . إن بينها وبين الثورة هذا الولد ، ولدها ، ذلك الخائن ....

لم تنبس كنتها بكلمة واحدة طوال النهار . ماذا تقول ؟ بينما ينهض الشعب ويثور ، يمشي زوجها مع (اليانكي) وخدمهم . كانت تجد شيئاً من العزاء في أن تقوم بكل الأعمال التي يطلبون منها أداءها . كانت تصنع شطائر الأرز ، وتمضي لشراء المؤونة . وعندما يحل الليل كانت تجلس وحيدة قرب مصباحها وتتمتم وهي تنتحب في أذن رضيعها :

– أبوك لم يعد ، يا ولدي المسكين . تلك هي التعاسة تحل بك وتحل بي .

ذات مساء ، بعد خمسة أيام من هجوم جيش التحرير ، وبينما كانت الأسرة تتناول طعامها ، ولج رجل الباب الخلفي . إنه (باتا) . صعقت السيدة (سو) هولاً وتركت صحنها وعيدانها ، ورنقت عينيها ؛ وتنهدت وهي تقول :

– أهذا أنت ؟

أغلق الشاب الباب الأمامي في سرعة . كانت عيناه قلقتين وكان جسده ملطخاً بالطين ، ولم تكن كل ثيابه غير سروال بسيط وهو يضم تحت إبطه علبة مغلفة بـ (النايلون) . كان كأنه خرج فوراً من بالوعة .

كادت زوجته تقلب صحنها رعباً . فضمت في جنون طفلها ، كانت جالسة على سرير حديدي فشرعت تختلج وترتعش كأنها ورقة ، وتحدق في زوجها بعين زائغة . أية كارثة ستنصب عليها ؟

اقترب (باتا) من السرير ، وجعل يصرف بين أسنانه :

– أف . كنت على بعد إصبعين من الموت !

كاد يفقد جلده عند الصباح في رصيف المرفأ . منذ خمسة أيام كان الأمريكيون والعملاء يصلون المنطقة ناراً حامية ولايحصى للجرحى والموتى والهاربين والفارين عدد . ولجأت القيادة إلى الأقبية تقضم غضبها وتزأر بأوامرها في المذياع .

– استعيدوا البناية . ردوا بكل ثمن كل هجمة تستهدف منطقة المرفأ .

www.alkottob.com

وعند الصباح جاءت ثلاثون طائرة من طراز (فانتوم) و (توندشيف) و (السيف) تقصف الأرض التي يحتلها جيش التحرير . وبدأ بعد ذلك ضرب المدفعية من طراز ١٥٠ ، ١٧٠ ، ٢٥٠ ، ٣٥٠ مم وهي قائمة في ساحة مدفعية المرفأ . كانت قطع الآجر والحديد تتطاير هنا وهناك أو تترك وراءها حفراً عميقة . وكانت أعمدة الكهرباء من الأسمنت المسلح أو من الفولاذ والأشجار الكثيفة الضخمة التي مزقتها القنابل تجثم على أرض الشوارع وعلى الأرصفة .

بعد طوفان النار جاءت قافلة من دبابتين ، من وزن ٤٨ طناً و ٥ ملم و ١١٣ ، و ٥ ملم ، ١١٨ ، وهما تزمجران لتفتحان الطريق أمام المشاة . وحدث إنفجاران رهيبان بعد دفقتين من اللهب الأصفر . واشتعلت النار بالدبابتين تحت طبقات من الدخان الأسود .

وصرخت عدة أصوات :

– قنابل ب ٤٠ .

كان (باتا) في مؤخرة الدبابة م ١١٣ ، فشعر برعشة تتمشى في كل نخاعه الشوكي .

ودوت قنابل أخرى ب ٤٠ .

وصرخ محاربو جيش التحرير يزأرون :

– الهجوم ! الهجوم .

ثم قفزوا على السيارات الثلاث الأخيرة ، وقفز (باتا) مع زملائه إلى الأرض ليهربوا في أقصى سرعة . وتكسرت أعناق بعضهم وكنست بعضهم أسلحة الأنصار ، ولجأ (باتا) في أعجوبة إلى ثقب أحدثته قنبلة ، ثم انزلق إلى حفرة ثانية ونجح في الخروج من ذلك الجحيم . ثم انطلق إلى شارع أكثر بعداً وتشبث بكومة من النفايات . بقي لحظة ثم أوغل في درب واختبأ في مجرور . وانتظر أن تمر فتاة من فتيان الدفاع الذاتي فخلع ثياب المدرعات وأخفاها في كومة النفايات ، ولم يحتفظ إلا بسرواله وبعلبة فيها مسدس . ورغم أنه كان خارج منطقة الخطر فقد كان يرتجف كلما سمع إنفجار قنبلة ب ٤٠ ، فهو يعرف جيداً مدى دويها . ياللهول .

www.alkottob.com

وكان عليه أن يقضي بعد الظهر كله ليبلغ المقبرة التي هي على مقربة من حيه . وانتظر حتى حل الليل الأسود لكي يدخل بيته من الباب الخلفي .

قال لزوجته : هاتي جرة ماء لأغتسل .

كانت زوجته كأنها تستيقظ من حلم ، فوضعت رضيعها في مهده وخرجت :

وسأل (باتا) أمه :

– أعندنا ثياب رجل ؟

كانت السيدة (سو) ماتزال ذاهلة ، ففتحت فَمها أول مرة وقالت :

– آه لقد عدت يابني . لم أفهم ماتقول .

– أعندنا ثياب رجل تصلح لي ؟

– نعم ! نعم ! ما أزال أحتفظ في الحقيبة بثياب أبيك . انتظر .

واختفت لحظة ، فدخلت الحجرة الصغيرة المجاورة وعادت تحمل قميصاً وسروالاً أسودين يلبسهما عادة الفلاحون في الجنوب .

بدل (باتا) في سرعة ثيابه ولم ينس وضع مسدسه في جيبه .

وقالت له أمه :

– حسناً ، خذ مكانك على السرير وكل معنا .

ولم يطلب الابن غير ذلك :

– طيب . ليس في بطني حبة أرز منذ الصباح .

أما (أوت) الذي ظل يأكل فقد كان يحفر دماغه بحثاً وتنقيباً :

« كيف استطاع العودة ؟ وإذا كان مع الثورة فلماذا خلع ثيابه كلها ليهرب مثل لص ؟ ولماذا هذا المسدس ؟ » .

زمجرت طائرة عدوة ، وألقت الصواريخ المنيرة أنوارها الزرقاء على الباحة . خرج (أوت) ليرى رصاص مجموعات الدفاع الذاتي وهي ترسم أقواس قزح من نار في السماء . وولت الطائرة وعاد (أوت) وهو يلعن :

– يااللعينة . هذا « الهيكل العظمي » يحوم على حينا .

www.alkottob.com

إنهم يُبيّتون أمراً .

أيقظت طلقات النار الأخيرة الطفل من رقاده فشرع يبكي . وحملته أمه وهدهدته . وعندما سكت حملته إلى أبيه :

– حسناً يا صغيرى . هذا أبوك عاد إلينا .

كان قلبها يفيض فرحاً ، ولكنها عرفت من طريقة عودته أنه لم ينضم إلى الثورة ، ولكنه عاد ، ومعنى ذلك أنه ليس الآن في صفوف أعداء الثورة . وهذا هو المهم . سيكون خجلها أمام أهالي الحي أقل وطأة .
مدت إليه الطفل في رفق . اكتفى (باتا) بإلقاء نظرة غير مبالية إلى الطفل ، ودمدم .

– أنت تقولين ذلك . ولكنه لايفهم شيئاً .

وانتهى إلى أخذه كيلا يزعج زوجته التي أصبح وجهها قاتماً . ليس هذا الوقت مناسباً للتفكير في الأسرة . كان يشغله تماماً أمر آخر .

ونظر إليه الطفل بعينيه السوداوين اللتين ذكرتاه بعيني أمه ، وابتسم وهو يحرك كفيه الصغيرتين :

ولاحظ (باتا) وقد انبسطت أساريره :

– إنظروا . إنه مسرور

وضحكت زوجته . وقد تعزت وسكنت ، ونظرت إليه ، بادلها (باتا) نظرتها ، وعلى شفتيه إبتسامة مصالحة . دس الطفل فمه الصغير فى صدر والده . اللعاب الذي بلل نسيج القميص وهب للأب إحساساً بالرطوبة على جلده فارتبك . واجتاحته هبة من الحنان واسترخت أعصابه . فجعل يضم طفله في عاطفة .

قالت له السيدة (سو) :

– كُل أولاً . مادمت عدت إلى البيت فلن يفوتك دعابه وتدليله .

واستعجلته الزوجة :

– كُل في سرعة واصحبني إلى اللجنة .

www.alkottob.com

وضع (باتا) عيدانه وسأل في صوت يرتجف :

– أية لجنة ؟ ولماذا يجب أن أقابلها ؟ ..

وشرحت له السيدة (سو) الأمر في رفق :

– صحيح . أنت لاتعرف . منذ بدأ الهجوم والثورة الشعبية ، تألفت لجنة ثورية مؤقتة للسهر على النظام في الحي . وبما أنك عدت وجب علينا إبلاغها .

مط (باتا) شفتيه فكشف عن سنتين من الذهب على جانبيها ؛ وقال :

– ياللعنة ! أتريدين أن يشنقنى الفييت – كونغ ؟

– ماهذا الذي تقول ؟

– وكيف لا . وأرفق كل كلمة من كلماته بضربة من عيدانه على صحنه الخشبى . أتجهلين إني صف – ضابط في الجيش « الوطني » . أنا لاجيء الآن في هذا المكان لألتحق بوحدتي إذا زال الخطر .

واصفر وجه الأم :

– آه . إذا كان ذلك كذلك ... فإن الأمريكان لم يبددوا أموالهم عبثاً في تسمينك وتغذيتك .

وانتحبت الكنة ، وسالت دموعها على شعر الطفل الحريرى .

حك (أوت) حاجبيه وألقى نظرة غاضبة على أخيه . ثم بدأ يصرخ على طريقة ماسحي الأحذية وبائعي الصحف في سايغون :

– أوكى . ليس في عقلك مقدار فلس . ألا تعرف أن هنالك جنوداً ، بل أصحاب رتب في حينا انضموا زرافات إلى الثورة ؟ لقد استقبلتهم اللجنة استقبالاً حسناً . صرحوا أن الثورة هي التي فتحت أعينهم . بعضهم عادوا إلى منازلهم وبعضهم طلبوا أن يقاتلوا (اليانكي) . اللجنة كما تعرف نَمْبَرَوَن . أول رايت .[1] . لم تشنق اللجنة أحداً أيها الغبي الكبير .

ضرب (باتا) بصحن الأرز السرير وزمجر :

– من سمح لك بمخاطبتي بمثل هذه اللهجة ياولد . ماذا تعرف أنت عن

---

(١) بالأمريكية : حسن جداً .

www.alkottob.com

الفييت – كونغ ؟ أنت لاتعرف شيئاً ، يا أبله .

وأجاب (أوت) :

– بلى أنا أعرفهم وأعرفهم جيداً . أنا وزوجة أخي مع نساء الحي ذهبنا إلى حي الجسر الجديد لنبحث عنك .

استطعنا أن نضم إلى صفوفنا وقضيتنا رجالاً قساة مثل النقيب (شينه) . ربما كنت مطلعاً على ذلك .

ولم يستطع (باتا) إخفاء دهشته :

وتابع الطفل :

– أنت ترى أني من الفييت – كونغ . وزوجتك أيضاً منهم . أمك وكل من في الحي فييت-كونغ ، لم نخدع أحداً بوعودنا .

أراد (باتا) أن يواري ارتباكه فتناول صحن الأرز وابتلع لقيمات . ثم عبر عن غضبه وهو يمد عيدانه إلى وجه (أوت) :

– حذار ... سأدق عنقك ذات يوم .

تدخلت الصبية وقد خافت أن يقوم زوجها بفضيحة . جلست قربه ومدت إليه الطفل وقالت مستعطفة وهي تكاد تبكي :

– الهدوء .. الهدوء ياعزيزي . كدت تفزع الصغير بصراخك . ثم لا تفضح نفسك عند الجيران . أعطني الصحن أصب لك مقداراً آخر من الأرز .

وضعت الطفل فوق ركبتي أبيه وقدمت له الطعام .

خافت السيدة (سو) من أن تفسد جرأة (أوت) الأمور ، وفكرت في نفسها « يجب أن نراعي (باتا) . إذا أثرناه كثيراً ، ألقيناه في أحضان الأعداء . يجب أن نكسبه بالحكمة والتعقل » .

كانت تهتم أن تلوم « أوت » لكي تدلل قليلاً بكرها . عندما فتح الباب ، أراد (باتا) أن يقفز لكي يهرب من الباب الخلفي . ولكن فات الأوان .

★ ★ ★

www.alkottob.com

9

– (أوت) أحدهم يطلبك

كان (كو ونغ) هو الذى أطلق نداءه من الباب الموارب ، وهو يشير إلى الشخص المجهول أن يبقى خارجاً ولا يدخل الدار . لاشك أنه كان يريد أن يحتفظ بمفاجأة أعدها لصديقه .

ولكن الزائر لم يتأخر في الظهور . إنه أحد مقاتلي جيش التحرير يلبس ثوباً أخضر حائلاً ، وذراعه اليسرى معلقة بضماد على كتفه . ولم يعرفه (أوت) إلا عندما رفع قبعته من القماش ليحيي (أوت) .

وصرخ الصبي فرحاً وألقى بنفسه بين ذراعي الضيف :

– « هونغ . هونغ ».

كان يكفى أمه وزوجة أخيه أن تسمعا هذا الاسم حتى تتذكرا كل ما جري في المقبرة . تردد (أوت) قليلاً ثم التفت نحو (باتا)

– أخي

www.alkottob.com

ولاحظ (كو ونغ) آنذاك وجود صف الضابط العميل .

– عجباً . هذا أخوك ، ومتى عاد ؟

منذ لحظة .

– ولماذا لايعلم بذلك أحد في الحي ؟

وأسرعت الأم في تحويل مجرى الحديث . ودعت الضيوف إلى الجلوس على سرير حديدي آخر .

ظل (باتا) مرتبكا خلال فترة ، وهدأ قليلاً بعد أن أنهى صحن الأرز .

لم يفت شيء مما حدث عين (هونغ) الذي كان قد تلقي معلوماته من اللجنة .

وقدمت لهم زوجة (باتا) فنجانا من الشاي الساخن واعتذر (كو ونغ) وقال :

– ابق هنا ياهونغ ، أما أنا فذاهب إلى اللجنة لأجد صديقك . وإن لم أذهب لن يعرف أنك هنا .

عندما كان (كو ونغ) يغادر البيت سألت الأم (هونغ) .

– لاتستحي .. هل أكلت ؟ إن لم تأكل فاجلس ها هنا وكل معنا ياولدي .

– شكراً يا أم . لقد أكلت قبل مجيئي إلى بيتكم .

وقال (أوت) في اندفاع :

– ما أكثر مابحثت عنك . وما أكثر ماخفت عليك وأنا أظن أن الشرطة قبضت عليك . ألم يتم شفاء ذراعك . حدثني عما جرى لك .

وعنفت السيدة (سو) ولدها :

– ولكن دعه يأخذ نصيباً من راحة .

ومع ذلك شرع (هونغ) يحكي قصته . ولاحظ ، وهو يتكلم شكل قبضة المسدس في جيب (باتا) .

أكل القلق صف الضابط العميل . لاشك أنه كشف أمري . لماذا جاء هذا الفييت – كونغ من اللجنة ؟ والولد الذي ذهب للبحث عن رجل آخر من

www.alkottob.com

الفييت – كونغ ! .... لاشك أنها إشارة اتفقوا عليها . إذا لم أدبر أمري أرسلوني إلى العالم الآخر .

ألقى (باتا) نظرة فاحصة على « هونغ » وعلى الباب الخارجي الذي ظل مفتوحاً .

واستمر (هونغ) في حديثه :

– ظلوا يمشطون المنطقة في ذلك اليوم في خطوط أفقية مع كلابهم طبعاً وفجأة صرخ رجال الشرطة : « الرجل يختبىء في القناة . خذوه حياً » ولبثت أنتظر .

جحظت عينا (أوت) :

وقال هونغ :

بقي لدي لغم واحد . أعددته عندما وقعوا في مدى يدي ، وأطلقته ، فسقط بعضهم صرعى واستلقى بعضهم على الأرض وصاروا يطلقون النار جزافاً وانتهزت هذه الفرصة لأهرع إلى القنابل . وصرخ (هونغ) فجأة وهو يسدد مسدسه إلى (باتا) :

– ارفع يدك . إذا تحركت مت . لاضرورة لإخراج حليتك .

أطاع (باتا) الأمر . وكشف فمه المفتوح بتكشيرة قبيحة كريهة عن نابين طويلين يلمع ذهبهما تحت نور المصباح . وارتعش (أوت) فوق السرير ولهثت الأم وهي تقول :

– الله الله يا أولادي .

لم يحقق (باتا) رغبته في القضاء على (هونغ) قبل أن يهرب .

مشى (هونغ) إليه وأخذ منه مسدسه (كولت ١٢) وسلمه لـ (أوت)

– إمسك . احتفظ لي بهذا .

كانت العجوز صفراء شاحبة كأنها قطعة غسيل ، وسحبت ساقيها تقترب منهم . والتفتت إلى ابنها الكبير تقول له في غضب :

– باتا . اقتلني إذن . يا أيها الولد العاق . اقتل أمك .

www.alkottob.com

واستدارت نحو (هونغ)

– عفواً يا ولدي .

كانت الكنة ، وطفلها على عاتقها ، في الحجرة المجاورة فهرعت وأمسكت بذراع زوجها وقالت وهي تنتحب :

– ألست مجنوناً . أتريد أن تقتل طفلك وامرأتك .

– أعاد (هونغ) مسدسه إلى جيبه وعمل على تهدئة الأم :

– اهدئي يا أم . لن يحدث ما يزعجك . أردت فقط أن أناقشه .

وانفجرت العجوز تنتحب ، وبعد أن مسحت عينيها بطرف ثوبها أمسكت بيديها (هونغ) و (باتا) ودعتهما للجلوس على السرير :

– كلاكما ولدي . لاتوجعا قلبي . يعلم الله مقدار ما عانيت في حياتي .

وجلست أمام مائدة الشاي ، و (هونغ) في جانب و (أوت) و (باتا) في جانب آخر . وقدمت الكنة الطفل لزوجها مدعية أنها تبحث عن الماء المغلي .

كانت تريد أن تحسب حساب كل فعل متهور يقوم به زوجها ، وكانت تريد كذلك أن ترقق قلب مقاتل جيش التحرير بمنظر الطفل .

قدمت السيدة (سو) الشاي .

تحدث (هونغ) إلى (باتا) بصوت ناعم كأنه يعرفه منذ أمد طويل :

– (باتا) قادتني المصادفة إلى معرفة أسرتك التي أنا مدين لها دين اعتراف بالجميل ، لقد أنقذني (أوت) من أيدي الشرطة . عندما رأيتك أول مرة كنت مسروراً برؤيتك هنا لأني أعرف أنك كنت مع الأمريكان والعملاء ، وكان هذا يرهق أمك وزوجتك وأخاك . مافعلته سبب لهم كثيراً من الحزن . وطفلك ألا تفكر في مستقبله عندما يصبح كبيراً .

كانت زوجة (باتا) في الغرفة المجاورة تقضم شفتيها لكيلا تنفجر منتحبة . ألقى (أوت) على أخيه نظرة احتقار وتابع (هونغ) :

– إذا كنت لاتقدر الدفقة الثورية التي تهز الشعب في الشوارع حتى قدرها فلا أقل من أن يدعوك موقف أسرتك إلى التفكير .

www.alkottob.com

تدخلت السيدة (سو) :

– إنه يلبس الثوب الذي تركه أبوه . لو كانت فيه ذرة من الضمير لوجب عليه أن يفكر في أخذ ثأره والانتقام له .

صمت (باتا) ولم ينبس بكلمة وعيناه تحدقان بابنه ، ثم رفع رأسه ودمدم بين أسنانه :

– إذن فأنا أسيرك .

اطمأنت الزوجة قليلاً فخرجت من الحجرة وأخذت الطفل لينام .

ولكن كلمة (باتا) أزعجت (هونغ) وخيبت أمله . هكذا إذن يريد أن يكون أسيراً لا أن ينضم إلى صفوف الشعب . إنه مايزال يأمل أن يعود ذات يوم إلى جيش الولايات المتحدة – وثيو – كي .

وتولى (أوت) الرد على كلام أخيه :

– كيف ذلك . أنت لست أمريكيا لتكون أسيراً أو سجينا . الأسير الأمريكي يبعثون به إلى أهله . أما أنت فإلى أين تذهب . عد إلى أسرتك . عد إلى وطنك .

ووافق (هونغ) على كلام (أوت) بابتسامة ثم خاطب (باتا) قائلاً :

– حسناً .. سواء أكنت سجيناً أم حليفاً . ذلك أمر يتعلق بك . ولكني أرجوك فقط أن تفكر جيداً وألا تضيع فرصتك في العودة إلى أمك وزوجتك وطفلك وأخيك . إذا سددت الطرق في وجه الثورة سحقتك الثورة سحقاً . أعتقد أن أسرتك وهي أسرة شجاعة باسلة ستنقذك رغم أنفك .

توتر الجو . وبدا أن مصباح الزيت يحترق في نور أكثر حدة . وظل (باتا) مطرق الرأس ، لايتحرك ولايتكلم ، ورن صوت (كو ونغ)في الخارج :

– (أوت) : جئتك بزائر آخر.

إنه (تام) رفيق هونغ
وفجأة زأرت الطائرات ..

www.alkottob.com

10

« آلو ! آلو ! الطائرات تحوم فوق حينا أيها المواطنون ، إهبطوا إلى الملاجىء .»

ما كاد صوت المذيع ينتهي من الإعلان عن الغارة حتى كانت القنابل والمتفجرات تهز الحي هزاً . وانبثقت النيران من كل مكان .

صرخت السيدة (سو) في صوت قلق ؛ وقد حملها (هونغ) و (تام) خندق :

– (أوت) .. أين (أوت) ؟

وأجاب الصبي :

– ها أنذا يا أماه . لاتخافي .

قبع (باتا) قرب (هونغ) ، وتمدد وهو يرتجف عند الجدار ، وعلق (أوت) .

– لقد رأوا أهدافهم في دقة . طائراتهم شرعت بطيرانها الاستطلاعي منذ

www.alkottob.com

الصباح للإعداد لهذه المجزرة . وارتعشت السيدة « سو » فجأة :

– أين زوجة (باتا) ؟

– أين زوجة أخي . ؟

– ياللسماء أيمكن أن تكون قد بقيت في الطابق الأعلى وولدها بين ذراعيها .

– ما العمل ؟

من فتحة الخندق كانت النيران تحرق البيت ، وكانت تزمجر ، وكانت الطائرات ذات الارتداد الذاتي تزأر ، وخلال القنابل والمتفجرات التي ترعد وطلقات المدافع المضادة للطائرات ورصاص فصائل الدفاع الذاتي كان من في الملاجيء يميزون فرقعة الأحشاب والسقوف التي تهوي .

سَلَّم (هونغ) مسدسه وأوراقه إلى (تام) وقال له :

– احتفظ بكل هذا .

– أين تذهب.

– أبحث عن الأخت (باتا) وعن ولدها .

– لاتذهب . ذراعك لما تشفَ . ثم إن القصف مستمر .

وقالت الأم و (أوت :

– ليس ذلك ممكناً يا (هونغ)

كان (هونغ) يهم بالصعود عندما أمسكه (تام) من قميصه :

– خير لنا أن أذهب أنا بدلاً منك .

وصرخ (هونغ) ، وهو ينتزع نفسه من يديه .

– دعني.

واندفع (تام) وراءه بعد أن ألقى بكل الأسلحة إلى (باتا) . كان البيت يحترق مثل مشعل . وكانت النيران تنبثق من فتحات الأبواب والنوافذ . وكانت امرأة (باتا) ترقد ممددة على التراب قرب مهد الطفل الذي كان يتخبط ويبكي .

حمل (تام) المرأة بين ذراعيه وانحنى (هونغ) في صعوبة على الطفل .

www.alkottob.com

وسقطت شظية ملتهبة على ظهر (هونغ) فصرّ على أسنانه لكيلا يصرخ وهبط محاربا جيش التحرير ناجيين من الجحيم . وكان هبوطهما مناسباً وفي الوقت الملائم . فقد انهار البيت .

أخذ (باتا) الطفل من يدي (هونغ) . وجعل الطفل ، وهو ظمآن دون شك ، ينبش صدره ، وأحس من جديد في موقع قلبه بشعور من الرطوبة ، وغمرته موجة من الحنان .

★ ★ ★

بعد رحيل الطائرات ، انضم (هونغ) إلى سكان الحي الذين يطفئون الحرائق . وجاءه رجل فقد صوابه وكأنه مصاب بالحمى :

– أنقذ ... زوجتي . إنها في البيت الذي يحترق ... هناك عرف (أوت) الذي خرج من الملجأ صاحب مصبغة « العندليب » واندفع (هونغ) فوراً إلى البيت الذي أشار إليه . كان أبناء صاحب المصبغة في أحد الخنادق يبكون .

وانحنى (هونغ) ليعبر خلال العوارض الخشبية الملتهبة التي تتكوم على الشرفة . كان (أوت) يتبعه عن قرب . « لقد تذكرت ركضه أمام الشرطة . ولكن ياربّاه . ما هذه الحرارة ؟! »

تمنى أن يعود أدراجه . ورأى (هونغ) يقفز في الحجرة الوسطى . كانت زوجة صاحب مصبغة (العندليب) تجلس على الأرض ، وتنتحب . ولم تكد تراه حتى كفت عن الأنين ، وجعلت تزأر وتميل جسدها إلى أمام لكي تبدو أصغر مايمكن أن تكون . كان العرق يتصبب منها في غزارة .

وركع (هونغ) أمامها ومد لها ظهره :

– لماذا بقيت هنا .. أين جرحك ؟ أحيطي عنقي بذارعيك .. سأحملك .. أسرعي ، ها هو السقف الخشبي يكاد ينهار .

ولم تتحرك المرأة .

صرخ (هونغ) .

– أسرعي . أسرعي .

www.alkottob.com

رأى وجهاً مقلوباً وعينين مذعورتين ؛ أما هي فكانت تزأر :

– وراءك يالص .. لن أغادر المكان .

ونظر (هونغ) إلى (أوت) نظرة ذاهلة :

– أصابها الجنون .

الولد الذي أدرك سبب مقاومة المرأة أجاب صاحبه :

– آه . ها هو ذا كيس السفر الذي تضمه على صدرها .. تخاف أن تأخذه منها .

فرقعت العارضة تحت اللهب ، واكتسحت أفاعي النار الكبيرة أثاث الغرفة ، وكان الدخان خانقاً ، وظلت المرأة تزأر :

– لصوص ... لصوص .

وهزها (هونغ) في عنف :

– أنظري قليلاً إلى هذه العارضة ، أتحبين أن تموتي ؟ أنا جندي من جيش التحرير جئت لإنقاذك . أعطيني هذا الكيس وتشبثي بظهري ، هيا في سرعة .

ورفعت أخيراً عينيها ودمدمت :

– أنت ... أنت جندي من جيش التحرير ؟

لم تكد تمد ذراعيها حتى انهارت العارضه الملتهبة الثقيلة ، وضربت ظهرها ، فأغمي عليها وهي تصرخ :

– أنقذوني .

سقط كيس السفر على الأرض ، ودفعه (هونغ) بضربة رجل إلى (أوت) ، وأطفأ النار في ثياب الضحية ورفعها على ظهره واندفع إلى خارج البيت وركض دفعة واحدة إلى المستوصف يتبعه (أوت) على مسافة قصيرة وهو يسائل نفسه : « ماذا عسى يحوي هذا الكيس الثقيل ؟ » .

وصلا إلى المستوصف ، وكان (هونغ) مرهقاً إلى حد الإعياء ، وقد استنزف كل قواه فسقط على الأرض بكل جسده مع حمله الإنساني .

www.alkottob.com

11

كانت الحمالات والسلال المصنوعة من الخيزران ، والنقالات والدراجات ، والعجلات تغص بها المقبرة التي أجادوا تمويهها وتغطيتها ... كل الاستعدادات جرت في سرية تامة . حتى الذين اختارتهم اللجنة في المهمة لم يكونوا يعرفون شيئاً عن المهمة التي كلفوا بأدائها . كانوا يحسون بالغضاضة ونفاد الصبر وينتظرون الأمر بالبدء في الرحلة . حث (أوت) صديقه (كو ونغ) على سبر أغوار أبيه الذي يعمل في اللجنة لمعرفة مايحدث . ولكنه لم يتلق إلا معلومات غامضة :

– سر عسكري . والأولاد على الخصوص ينبغي عليهم ألا يثرثروا .

كان (أوت) على ثقة من أن (هونغ) يعرف ما يدبر . بل لعل أخاه يعرف ذلك .

بعد الليلة التي تم فيها قصف الطائرات ، مثل (باتا) أمام اللجنة مع أمه .

وفي اليوم التالي عندما جاء (هونغ) للبحث عن كيس السفر الذي استلمه

www.alkottob.com

(أوت) أمسك (باتا) بيد (هونغ) وهو يبكي :

– لقد انتظرتك يا (هونغ) ... أريد أن أقول لك : ما أكثر ندَمي . وشرع ينتحب كأنه امرأة طيبة ، ثم نظر إلى المقاتل وجهاً لوجه وتحدث .

وأجهد (هونغ) نفسه في الاحتفاظ بهدوئه ليسمع كلامه :

– (هونغ) ! لقد أنقذتني . وأنقذت ولدي وزوجتي وعائلتي .... أنت لم تحرص على حياتك ... لم أغمض عيني طوال تلك الليلة ... أنا مدين لك ديناً ثقيلاً ... أنا مدين للثورة ديناً عظيما ....

مسح (باتا) دموعه وتابع في صوت أكثر صرامة :

– ثم إني كنت أريد أن أقتلك ... أنت المحسن الكبير إليّ . طوال سنوات كثيرة جعلوني أعتقد أن الفييت – كونغ ينهبون ويذبحون الشعب . ولكن القنابل والمتفجرات الأمريكية فتحت عيني .

ربت (هونغ) في رفق وحنان على كتف (باتا) لكي يوقف ذلك المشهد الصعب .

– أنا مسرور لأنك ترى الآن الأمور على حقيقتها .

وسأله محاوره في لهجة استعطاف :

– ساعدني الآن على أخذ ثأر أبي . إقبلوني في صفوف جيش التحرير أو فصائل الدفاع الذاتي . أقسم لك إني سأقاتل لكي أدفع ما عليّ من دين .

وأجاب (هونغ) بعد لحظة من التفكير في صوت متهدج :

– حسناً . أنا واثق بك . ولكن عليّ أن أسأل اللجنة و رؤسائي عن رأيهم .

منذ ذلك اليوم كان يزور ، في أغلب الأحيان ، السيدة سو ، وسمعه (أوت) يقول مرة لأخيه في صوت خافت :

« نحن نملك القدرة على القيام بذلك ... شريطة أن توافق أنت ... » وافق (باتا) على ذلك بهز رأسه وقال :

– « أنا جاهز ... هذا مخططي ... »

www.alkottob.com

قال (هونغ) وقد أبصر (أوت) :

– هيا إذهب يا أخي والعب هناك . لاتستمع إلى حوار الكبار .

احمر وجه (أوت) ومضى . وقد سره أن يعرف أنهم مقدمون على توجيه « ضربة كبيرة » .

★ ★ ★

ذات صباح جاء (باتا) إلى بيته بلباس رجال المدرعات الذي ألقاه في النفايات في شارع « نغو فان سو » .

وعند الظهيرة جاء (هونغ) ليجد (باتا) وهو يركب « هوندا » ويلبس قبعة رمادية وقميصاً ليس جد نظيف وحذاء أسود كآبي اللون ، يمكن لو رأيته أن تعده موظفاً صغيراً في مكتب أو عاملاً .

أما (باتا) فكان يرتدى بزته العسكرية وقبعة من جلد . مضيا لتحية السيدة (سو) التي كانت تعرف ما يحدث .

قالت لولدها :

– إذهب يا ولدي . وكن جديراً بالثورة .

أدنت السيدة (باتا) ولدها إلى زوجها فقبله قبلة رنانة .

أدى (أوت) التحية العسكرية للرجلين اللذين امتطيا الدراجة النارية . كان (باتا) وراء المقود ، وكان (هونغ) يجلس خلفه .

★ ★ ★

في الفجر تجمع المتطوعون في المقبرة . لم يستطع (أوت) و (كو ونغ) و (كيو شون) الانضمام إليهم إلا بعد رجاء واستعطاف .

نذكر ، بالمناسبة ، أن (أوت) و (كيو شون) و (ليان) تم قبولهم فى فصيلة رواد التحرير ، أما الأطفال الآخرون فى الحى مثل (كو ونغ) و (تينه) و (داو) و (هونغ) فهم أعضاء في فصيلة الرواد منذ أمد بعيد . وعين (كو ونغ) مسئولاً عن هذه الفصيلة لأنه تميز بعملياته في مطلع العام : وزع مناشير

www.alkottob.com

الدعاية السياسية لجيش التحرير ، كما وزع الصحف السرية .

أما (ليان) فقد فجعت بجدتها خلال الغارة الجوية . فتكفل بها أعضاء اللجنة التي أصبحت هي فيها عنصر اتصال ، وأصبحت أحسن حالاً ومظهراً بعد أن أصبحت أحسن تغذية .

كان الأطفال الذين تم قبولهم في العملية يشعرون بالسعادة والفرح ، ولا يفتأون يخمنون ما سيدور .

– كلا . الأمر دون شك أمر مظاهرة لأننا نحمل الأعلام والشعارات .

– لا ، بل إن الأمر يتعلق بالبحث عن الأرز لنقله إلى المنطقة المحررة ، فليس لدينا أرز .

ولخص (كيو شون) الرأي العام فقال بالفيتنامية المخلوطة بتعابير الخمير .

– تو ني ، تو إي[1] ، سيان عندى . شريطة أن يتركوني أذهب مع الكبار لكسر أشداق الأمريكان والعملاء .

أقبل الليل ولم يصدر أمر التحرك . كان الرجال يدخنون سجاير تثقب ظلام الليل بنقاط مضيئة كأنها الحباحب . وكان الشباب يغنون معاً أغاني ثورية « لننزل إلى الشارع » ، « لنمش إلى سايغون » . « لنقم بخياطة الألبسة للمحاربين » ...

في الساعة الثامنة تماماً انفجرت ثلاث قنابل للإشارة في شارع « الجسر الجديد » وبدأت المدافع تدوي وتعالت هتافات الفرح .

– مدفعيتنا تدك المستودعات !

– وكذلك جسر (بي) يا أولاد !

– وكذلك مطار (تان سوف نوت) !

كانت البروق اللامعة في السماء ، من ناحية مرفأ سايغون ، تبدو فيها كتل سوداء للبيوت ولأعمدة الكهرباء .

---

(١) أين نذهب وماذا نعمل ؟ بالخميرية .

www.alkottob.com

وكانت المقبرة في حيص ــ بيص ، وتداعى الأطفال :

– هيه .. أين أنت يا (أوت المصفاة) ؟

– ها أنذا .

– لقد تسلق شجرة هناك ليرى ما يجري .

– يجب أن تدعوه ليستعد .

وأمر صوت صارم :

– إلى الصفوف ، جميعاً ، إذا شئتم . عودوا إلى فصائلكم وحافظوا على المسافات بينكم .

ومضت العجلات والحمالات والعربات والناس متجهين إلى الشارع الكبير . وصعد الرواد الذين يقودهم (كو ونغ) على عجلة كانت تسير على قارعة الطريق التى أُزيل ما كان فيها من عوائق ، وتدفق الرجال والعجلات من اتجاهات عديدة نحو المستودعات والمرفأ .

★ ★ ★

www.alkottob.com

12

مر (باتا) في سهولة وهو يركب الـ (هوندا) أمام مراكز الحرس . ومع ذلك فقد أوقفوه أمام المرفأ . وقدم أوراقه : العريف (تا) من الفصيلة الأولى – السرية رقم ٢٥٦٠ ، الكتيبة ٥٦٩ ، الفرقة الآلية في الدفاع عن العاصمة ، القسم ٢٥ من المدفعية :

سأله الحارس :

– من أين جئت ؟

– دورة مراقبة .

– من وراءك ؟

– أخي ، يعمل في المرفأ ، أستعير دراجته .

– أوراقك !

– ها هي ذي !

كان (هونغ) فى أقصى حالات التوتر .

عاد (باتا) إلى وحدته ، وادعى أنه وقع في نطاق حصار الفييت-كونغ

www.alkottob.com

فوجب عليه أن يلجأ إلى بيته عدة أيام . أما العدو الذي كان وضعه في خطر فكان له ما يشغله أكثر من التحقيق في هذه الأقاويل .

وتنكر (هونغ) في ثياب عامل جرار بقبعة واقية من (الميكا) الأسود غطى بها جبهته . واختلط بالجمهور الصاخب من العمال الذي تعمه الفوضى . كانت هنالك فئات من العمال يناقشون مع الجنود أمر عودتهم إلى بيوتهم .

منذ سبعة أيام ألقى العدو ، احتياطاً لهجوم على المستودعات ، لايمكن إلا أن يقع ، أطناناً من القنابل ، وقام بعشرات الهجمات المعاكسة أملا أن يبعد جيش التحرير عن جادة الجسر الجديد . وكانت المستودعات تدافع عنها المدفعية والدبابات و « حزام من الحماية » مؤلف من ألوف العمال الذين يعملون في المرفأ .

اقترب (هونغ) من أحد العمال .

– لم أعد أطيق صبراً . أنزلني الأمريكان عن الجرار وقادوني إلى هذا المكان .

ونظر إليه العامل في تعاطف :

– ونحن عمال المرفأ نقبع هنا منذ أمس . يجب علينا أن نكون طعاماً للمدافع ؟

– قل يا صاحبي أتعرف مصادفة إذا كان (تام تين) في هذه المنطقة ؟ إنه عمي .

– أعرفه . أليس (تام تين) عامل الجرار في المستودع رقم ١٢ والذي يقطن (نهي تي) . إذا كان هذا فهو هناك .

وشق (هونغ) طريقة بين الجمهور ، ووقف إلى جانب رجل هو في تقدير العامل الكهربائي (تو) العم (تام تين) .

وشوش في أذنه :

– (تام تين) أرسلني (تو) من (نهي — تي)

نظر إليه (تام) نظرة شك .

وبعد تبادل كلمة السر ، سأل (هونغ) العامل العجوز أن ينقل إلى عمال

www.alkottob.com

المرفأ وعائلاتهم الأمر اليومى التالي : « عند المساء إذا رأوا الإشارة الحمراء تنطلق من جادة الجسر الجديد فيجب أن يتجمعوا في المكان لكي يتجنبوا قنابل جيش التحرير ».

وتم تعميم الأمر دون عائق وفي قليل من الوقت .

في ذلك المساء ، وحسب الاتفاق تجمع العمال وراء حاجز وانطلقوا نحو المكان المعين تحت حماية دبابة يقودها (باتا) . وأمطرت قنابل جيش التحرير الساحة التي تتجمع فيها الدبابات والمدفعية والسيارات المصفحة .

كان (هونغ) في المنطقة مع رماة الرشاشات الذين كسبهم من أجل القضية .

هاجمت جيوش التحرير المستودعات . فاصطدموا بمقاومة ضارية .

كان العدو يتحصن وراء تحصينات الدفاع ، فرد عليهم بنار حامية . أخرست قنبلة ب ٤٠ ، أصابت مرماها المعقل الذي يحمي المدخل . تتابع ضرب التحصينات الأخرى الرئيسية واحداً بعد واحد ، إلا أن استحكاما تحت الأرض ، يضم العقيد الأمريكى ، قائد منطقة المرفأ وأركان حربه وجيوشه المختارة ، ظل يقاوم . كانت الرشاشات المنصوبة حول الاستحكام ترسم شبكة من نار كثيفة ، وتثير التراب والرمل في زوبعة جامحة . وارتد محاربونا لكي يركزوا القصف من مدافع (مورتر) ٦٠ و ٨٠ والصواريخ ب ٤٠ ، وتتابعت الانفجارات دون انقطاع ، ولكن الاستحكام بدا وكأنه يستعصى على القصف .

أمرت القيادة بتوجيه ثلاثة رشاشات على مدفع رشاش لكي تسهل تقدم وحدة من وحدات المدفعية ، وقفز محارب يحمل لغماً تحت إبطه إلى كومة من الآجر ، وعندما سكت الرشاش المستهدف لحظة ، اغتنم الفرصة فأوغل إلى أمام ، لكنه سقط فوراً وقد حصدته رشة نار .

تقدم شبح آخر فقفز وتمدد وراء الجثة . زأر الرصاص . ونجح المقاتل بأعجوبة في القفز على سقف الاستحكام وانحنى وألقى لغماً في مرمى الرشاشات .

عندما دوى الانفجار أسرع الآخرون في الخروج من الثقب المفتوح .

ولم يجد العقيد الأمريكي وثلاثة من الضباط الذين ظلوا على قيد الحياة الفرصة للوصول إلى السرداب الذي يقود إلى جرف النهر .

www.alkottob.com

أصبحت جيوش التحرير سيدة المستودعات ، ورفرفت أعلام جيش التحرير وشعاراته عليها في مهب الريح ظافرة . ودوت صرخات النصر .

وانضم الألوف من سكان الشوارع المجاورة إلى الألوف من عمال المستودعات ليفرغوها : أكوام من الأرز والمحفوظات والمنسوجات والأدوية جمعت هنالك لتوزيعها على الشعب . وتجولت هنالك أعداد من العجلات والدراجات والشاحنات العسكرية التي تم الاستيلاء عليها حديثاً ، وهي تحمل البضائع .

أما الأسلحة والذخيرة فلا تعد ولا تحصى .

كوم الأطفال في حماسة أكواماً من البنادق وصناديق الرصاص في العجلات :

– يجب أن نطلب الاحتفاظ بها ... أليس كذلك يا شباب .

وأجاب (أوت) :

– ألا يعطيها الأعمام لنا ؟

– ولِمَ لا ؟ إنها أكداس مكدسة ، ومع ذلك إذا وجب علينا العمل السري في الحي والمدينة فنحن في حاجة إلى حلية صغيرة كيلا يقتلنا رجال الشرطة .

قال (تينه) ساخراً وهو يحمل أنبوب مدفع (مورتر) ثقيلاً :

– على ألا يعطوني على الخصوص هذه الحلية !

رغم جهود ألوف الحمالين المتطوعين كان من المستحيل تفريغ كل ما كان في المستودعات . وعندما أصبح الصباح كان من الواجب تفجير مستودعات النفط والذخيرة الباقية .

★ ★ ★

www.alkottob.com

13

أنهت فصائل جيش التحرير مهمتها فانسحبت من العاصمة .

وحدة من الجيش اجتازت سراً حي (نهي تي) أثناء الليل . ولكن بعض السكان استيقظوا على قعقعة السلاح ووقع الخطوات فنبهوا جميع الناس . وأسرع الصغار والكبار إلى الشارع يحملون المشاعل .

الأم (بي) والأم (تو) والأم (شين) وكثيرات من العجائز ومنهن الأم (سو) ذات الساق المشلولة قطعن الطريق على المقاتلين وقلن لهم :

– استريحوا قليلاً يا أولادنا . طالما انتظرناكم .

أمسك رجال الملاكات في رفق بأيديهن وفسروا لهن الأمر بالتراجع وأن من الواجب تنفيذه تنفيذاً صارماً .

– لن نمسككم أمداً طويلاً . توقفوا بضع دقائق للحديث معنا .

ذلك ما قالته إحدى النساء .

وأجابها القائد :

www.alkottob.com

– شكراً شكراً يا مواطنات ... نحن نحمل أحمالاً ثقيلة .. وضع هذه الأحمال ثم حملها يتطلبان زمناً غير قليل . في الهجوم المقبل سنبقى هنا أمداً طويلا ....

وثابر الجيش على تقدمه ، ولكن في بطء ، فقد أربكه الجمهور ، ولاسيما النساء والأطفال . كانوا يغمرون المقاتلين بالهدايا التي أعدوها لهم في انتظار هذه اللحظة من الفراق : الشطائر المدورة (نيت) وحلقات من الشطائر الأخرى من نوع (إيت) و (أو) وعلب من الأرز المسلوق . والسجائر والموز وقصب السكر .

وكان الرفض التام مما أقلق الصفوف :

– كيف نقبل هداياكم ، وأنتم فقراء ، ولاتنسوا أنكم ستعانون القصف .

وعُلقت الشطائر بالخيوط فى أعقاب البنادق ودست العلب في الجعب ... وكان لزاماً عليهم أن يقبلوا الهدايا .

« هذه هدايا تافهة ، ولكنها تقدم إليكم طواعية وبكل قلوبنا فلا ترفضوها » .

سمع (أوت) صوتاً أليفاً فالتفت . إنها صاحبة مصبغة (العندليب) مع زوجها ، وفي يدها كيس كبير ، وهي تمد بيدها الأخرى أوراق النقد إلى القائد الذي يرفض قبولها رفضاً باتاً :

– شكراً على معونتك للمحاربين والثورة . ولكن قبول الدراهم محظور علينا .

وركضت وراءه :

– لقد فقدنا المصنع والبيت وذلك ما ارتكبه الأمريكان . والذي بقي لنا نحن مدينون لكم به . بل إني مدينة لكم بحياتي .

وذكرت أمر الحريق والأعمال البارعة التي قام (هونغ) و (أوت) بها . في الأيام الأخيرة لم تدخر جهداً في الثناء على مقاتلي جيش التحرير . كانت تصرخ تحت كل سقف :

– نحن مدينون للثورة بكل شيء .

www.alkottob.com

وتذكرت على الخصوص موضوع كيس السفر الذي يحتوي علاوة على جهاز التلفزيون أربع علب ملأى بالذهب والجواهر والحلي . أن تعرف أن صبياً فقيراً قد احتفظ به بضعة أيام دون أن يمسه أمر عظيم ، وأن صبياً لايملك فلساً واحداً قد أعاده إليها .

كانت تتحدث ، فأمسكت السيدة (بي) بذراع القائد وقالت له :

– إنقل إلى إخواننا في المنطقة المحررة كل تحياتنا وأشواقنا .

– سأفعل ، يا أماه .

– وإذا صادفت أولادي وشباب حينا الذين تطوعوا ، فلا تنس تشجيعهم .

– سأفعل يا أماه .

كان المحاربون والأهالي يتقدمون ثلاثة ثلاثة وخمسة خمسة . ويخيل إليك أن التراجع كان تراجعاً بالمشاعل والأضواء .

وكان الأطفال لا ينقطعون عن الكلام . وسأل (أوتو) أحد المحاربين أن ينقل أخباره إلى (هونغ) و (باتا) .

وأضافت السيدة (سو) :

– (باتا) ولدي . لقد التحق بالمنطقة المحررة منذ أول أمس . قل له إطمئن على زوجتك وولدك . لقد كنسنا كل العملاء القساة والشرطة . ومن يعود منهم سيلقى مصيرهم .

أعطت السيدة (باتا) أحد المحاربين علبة صغيرة وقالت له ، وهي تتردد :

– أعطها لزوجي إذا سمحت ؟

– شطائر . ما أكثر ما تدلعينه !

– كلا . بل هي بعض المناديل .

وكان ذلك صحيحاً ، فالعلبة ليس فيها إلا منديلان ورسالة .

وبعد مسيرة غير قليلة رجا رجال الملاكات السكان أن يعودوا إلى حيهم . وتمت عمليات غير قليلة من العناق والمصافحة والتحيات والتمنيات والوداع

www.alkottob.com

لاتكاد تنتهي .

واصطف السكان على الرصيف ورفعوا ملاجين من المشاعل . ومُدت الأيدي في حنان عند مرور المحاربين ، وسمع الناس زفرات مخنوقة . وعندما توارى المحاربون عند منعطف الطريق ، كانت صيحات الديّكة تعلن انبلاج الفجر .

www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

الفهرست

مقدمة المترجم	عبد المعين الملوحي	5
في غياب ماما	نغوين تي	9
محارب (شو ــ بونغ) الباسل	نغوين ترونغ تانه	31
مساح الأحذية الصغير	نغوين لوك	45
في سايغون		

www.alkottob.com

رقم الإيداع
٨٧ / ٣٨٨٠

طبع بدار المدينة المنورة

١١٤ ش مجلس الشعب ـــ القاهرة

www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

الغلاف: عماد حليم

لوتس: منار 3 ـ [illegible] ـ 1002 ـ فيلا 21
هاتف: 235.839 ـ ص.ب: 1049.438 تونس ـ حشاد
الجمهورية التونسية

library4arab.com
www.alkottob.com
www.alkottob.com